جمعية تحقيق التراث العلمي

سلسلة الإصدارات العلمية (٣)

القولُ الفصل

في ردِّ شُبهةِ مسألةِ العُذرِ بالجهلِ

تأليف فضيلة الشيخ

عبدالله بن صالح العبيلان

تقديم

سماحة الشيخ العلامة

د. صالح بن فوزان الفوزان

المفتي العام للمملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فإنَّ مشروع (وقف الكتاب) في جمعيَّة تحقيقِ التُّراثِ العِلميِّ، يهدفُ إلىٰ إخراج النَّفيس مِن كتب ورسائل أهل العِلم وتصانيفهم، في مختلف علوم الشَّريعة، راجين الله أن يكون منارةً في دعمِ الكتاب، وسهمًا نرمي به في نشر العِلم ومعونة أهله وطُلَّابه، وتيسير تناول المطبوع في أيديهم، بأحسن حُلَّةٍ وأتقن إخراجٍ.

ويطيب للجمعيَّةِ أن تقدِّم لطلَّاب العلم الإصدار الثَّالث مِن مشروع وقف الكتاب، وهو كتاب (القَولُ الفَصلُ في ردِّ شُبهة مسألة العُذر بالجَهل) مِن تأليف صاحب الفضيلة العلَّامة المحقِّق الشَّيخ عبد الله بن صالح بن عبد العزيز العبيلان، دلَّل فيها وحقَّق لهذه المسألة المهمَّة، مِن القرآن والحديث، وكلام الصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة السَّلف، بما يزيل الإشكال، ويوضِّح الحقَّ في هذا.

وقد ازدان الكتاب علىٰ نفاسته، بتقديم سماحة العلَّامة الشَّيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان -عضو هيئة كبار العُلماء وعضو اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء- حفظه الله، وأبقاه ذُخرًا للإسلام والمسلمين.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وصوابًا علىٰ سنَّة نبيِّه الأمين ﷺ، وأن يجزي بالإحسان مَن ساهم في إخراجه وطبعه.

اللَّجنة العِلميَّة

بجمعيَّة تحقيق التُّراث العِلميِّ

حائل

٢٦/٧/١٤٤٦هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة سماحة الشَّيخ العلَّامة صالح بن فوزان الفوزان

سماحة الشَّيخ العلَّامة صالح بن فوزان الفوزان..

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمَّا بعد..

فإنِّي أحمدُ الله إليكم، وأرجو أن تكونوا بأتمِّ نعمةٍ وأحسن حالٍ..

صاحب الفضيلة: برفقه ورقاتٌ كتبتُها في مسألة العُذر بالجهل، آمل اطِّلاع سماحتكم، وإفادتي بما ترونه، والله يحفظكم ويرعاكم.

وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته، وبعد:

قرأتُ ما كتبتُم، وقد أجدتم وأفدتم، فجزاكم الله خيرًا.

وهذه الفكرة نشأت مِن المرجئة الذين ظهروا في هذا العصر، ولم يكن عند أهل العِلم شكٌّ في أنَّ مَن عاش مع المسلمين، وهو يسمع القرآن والأحاديث، ويسمع الخطب والمحاضرات التي فيها النَّهي عن الشِّرك والكفر، أنَّه قد قامت عليه الحجَّة، وكذا مَن يعيش في غير بلاد المسلمين، وهو يسمع القرآن في وسائل الإعلام، على وجهٍ يفهمه لو أراد فهمه، أنَّه قد قامت عليه الحجَّة، لقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ولكنَّ هؤلاء يقولون هذا دِين الوهَّابيَّة، ودِين الجاميَّة، وغير ذلك مِن الألقاب المنفِّرة، لأنَّهم لا يريدون الحقَّ، وإنَّما يتَّبعون الهوىٰ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، بل يقولون أنتم تكفيريُّون، وأنتم .. وأنتم .. فالله المستعان.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

د. صالح بن فوزان الفوزان

في ٢٢/ ٥/ ١٤٣٤هـ

سماحة الشيخ العلامة صالح بن فوزان الفوزان سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .... أما بعد ،

فإني أحمد الله إليكم وأرجو أن تكونوا بأتم نعمة وأحسن حال

صاحب الفضيلة : برفقه ورقات كتبتها في مسألة العذر بالجهل ، آمل إطلاع سماحتكم وإفادتي بما ترونه ، والله يحفظكم ويرعاكم

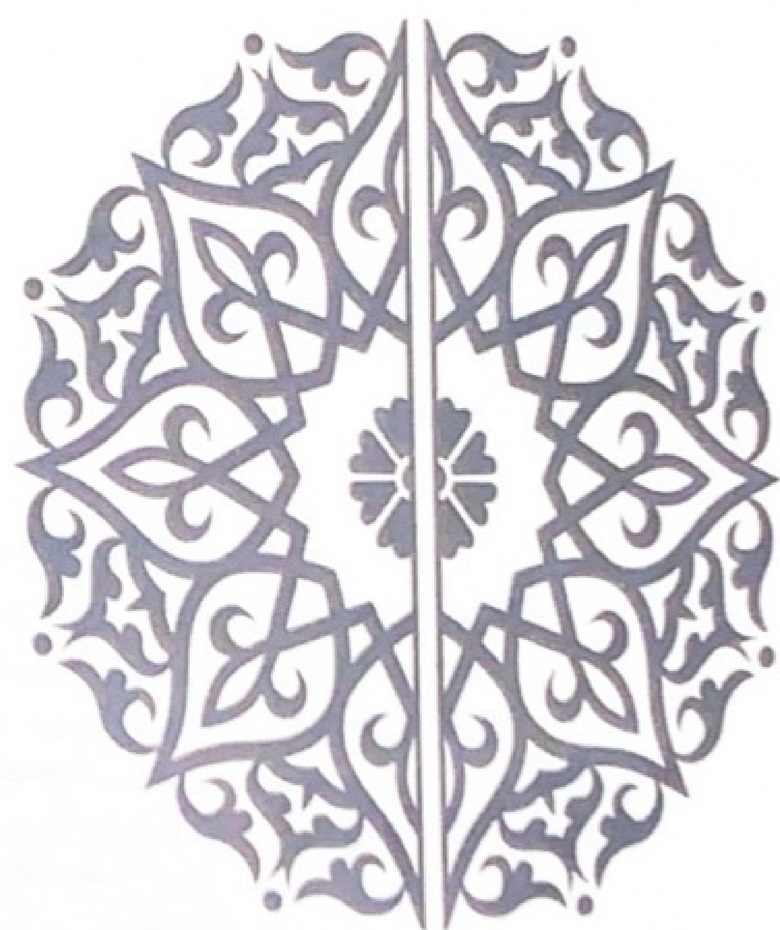
سلمه الله

محبكم وتلميذكم

عبدالله بن صالح العبيلان

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . وبعد :
قرأت ما كتبتم وقد أجدتم وأفدتم جزاكم الله خيرا
وهذه الفكرة نشأت من المرجئة الذين ظهروا
في هذا العصر . ولم يكن عند أهل العلم شك
في أن من عاش بين المسلمين ويسمع القرآن والأحاديث
ويسمع الخطب والمحاضرات التي فيها النهي عن الشرك والكفر
أنه قد قامت عليه الحجة . وكذا من يعيش في غير بلاد المسلمين
ويسمع القرآن في وسائل الإعلام على وجه يفهمه لو أراد فهمه
أنه قد قامت عليه الحجة لقوله تعالى : {وأوحي إلي هذا القرآن
لأنذركم به ومن بلغ} ولكن هؤلاء يقولون هذا دين الوهابية
ودين الجامية وغير ذلك من الألقاب المنفرة لأنهم لا يريدون الحق
وإنما يتبعون الهوى {ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله
لا يهدي القوم الظالمين} بل يقولون أنتم تكفيريون وأنتم
فالله المستعان

كتبه
صالح بن فوزان الفوزان
في ٢٢/٥/١٤٢٤هـ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمدُهُ ونستعينُه ونستغفرُه ونعوذ به تعالىٰ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادِيَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فصلٌ

اعلم -رحمك الله- أنَّ ما وقع في هذه الأمَّة مِن الشِّرك بعد التَّوحيد هو عين ما وقع في الأمم قبلنا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ

مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، فمَن بقي منهم علىٰ دِين الرُّسل فهو الموحِّد النَّاجي، كما في الحديث الصَّحيح: عَنْ عِياضِ بْنِ حِمارٍ الْمُجاشِعِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذا، كُلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنَفاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّياطِينُ فَاجْتالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ ما أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي ما لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ

إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»(١)، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، وأكثرهم أشركوا مع الله، فلم يدينوا بالدِّين الذي بعث الله به رسله.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمُّنه له، ويظنُّونه في نوعٍ وفي قومٍ قد خلوا مِن قبل، ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعَمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم مَن هو مثلهم، أو شرٌّ منهم، أو دُونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكنَّ الأمر كما قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّما تُنقض عُرىٰ الإسلام عُروةً عُروةً، إذا نشأ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهليَّة»(٢)، وهذا لأنَّه إذا لم يعرف الجاهليَّة والشِّرك وما عابه القرآن وذمَّه: وقع فيه

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٨٦٥).

(٢) لم نقف عليه بهذا التَّمام مِن قول عمر رضي الله عنه، أمَّا ما وقفنا عليه مِن قول عمر رضي الله عنه: ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه برقم: (٣٢٤٧٢)، والحاكم في مستدرَكه برقم: (٨٣١٨)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان برقم: (٧١١٩)، وغيرهم -بإسنادٍ حسنٍ- ولفظه: عَنِ الْمُسْتَظِلِّ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ مَتَىٰ تَهْلِكُ الْعَرَبُ»، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: مَتَىٰ يَهْلِكُونَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «حِينَ يَسُوسُ أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يُعَالِجْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمْ يَصْحَبِ الرَّسُولَ ﷺ»، وأما شطر الحديث الأوَّل فقد جاء مرفوعًا.

وأقرَّه، ودعا إليه وصوَّبه وحسَّنه، وهو لا يعرف أنَّه هو الذي كان عليه أهل الجاهليَّة، أو نظيره، أو شرٌّ منه، أو دُونه، فينقض بذلك عُرىٰ الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والبدعة سنَّةً والسُّنَّة بدعةً، ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التَّوحيد، ويبدَّع بتجريد متابعة الرَّسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومَن له بصيرةٌ وقلبٌ حيٌّ يرىٰ ذلك عيانًا، والله المستعان»[(١)].

وقال رحمه الله: «قيل: **للنَّاس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين:**

الأوَّل: **كابن عمر** وغيره، كانوا يقولون هم مِن المشركين، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لا أعلم شِركًا أعظم مِن أن يقول المسيح ابن الله وعزيزٌ ابن الله، وقد قال تعالىٰ فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]»[(٢)].

---

(١) مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، لابن القيِّم، (١/ ٣٤٤).

(٢) الذي وقفنا عليه: ما أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٥٢٨٥)، ولفظه: عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ نِكَاحِ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْمُشْرِكَاتِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَعْلَمُ مِنَ الْإِشْرَاكِ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ: رَبُّهَا عِيسَىٰ، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ».

والثَّاني: لا يدخلون في لفظ المشركين، لأنَّ الله سبحانه جعلهم كغيرهم، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ [الحج: ١٧].

قال شيخنا: والتَّحقيق أنَّ أصل دِينهم دِين التُّوحيد، فليسوا مِن المشركين في الأصل، والشِّرك طارئٌ عليهم، فهم منهم باعتبار ما عرض لهم، لا باعتبار أصل الدِّين، فلو قدِّر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنويِّ، وهو كونهم نجسًا، والحكم يعمُّ بعموم علَّته»[1].



(١) أحكام أهل الذِّمَّة، لابن القيِّم، (١/ ٣٩٩).

فصلٌ

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَلْحَق قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ»(١).

---

(١) **حسنٌ**: أخرجه الطَّيالسيُّ في مسنده برقم: (١٠٨٤)، وأحمد في مسنده برقم: (٢٢٣٩٥)، وأبو داود في سننه برقم: (٤٢٥٢)، والتِّرمذيُّ في سننه برقم: (٢٢١٩)، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ»، مِن طريق أبي قلابة، =

إلَّا أنَّ الفرق بين هذه الأمَّة والأمم التي قبلها أنَّ الله لم يكِل حِفظ دِينها لأحدٍ، بل تكفَّل بحِفظه، لأنَّه الدِّين الخاتم، الذي به تقوم الحجَّة علىٰ العباد، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: مَن بلغه القرآن، فكلُّ مَن بلغه القرآن فقد أنذره محمَّدٌ ﷺ، والنِّذارة ليست مختصَّةً بمَن شافههم بالخطاب، بل ينذرهم به وينذر مَن بلغهم القرآن، عن محمَّد بن كعبٍ القرظيِّ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال: «مَن بلغه القرآن، فكأنَّما رأىٰ النَّبيَّ ﷺ، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]»(١)، وعن حسن بن صالحٍ قال: «سألت

= عن أبي أسماء الرَّحَبيِّ -والظَّاهر أنَّه: حسَن الحديث- عن ثوبان مرفوعًا. وله شاهدٌ عند البخاريِّ في صحيحه برقم: (٧١١٦)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٩٠٦) ولفظه: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، أَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَىٰ ذِي الْخَلَصَةِ».

(١) **حسنٌ لغيره**: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه برقم: (٢٩٩٥٨)، وابن أبي حاتمٍ في تفسيره برقم: (٧١٦٥)، وفيه: موسىٰ بن عبيدة، وهو ضعيفٌ، ومِن أهل العِلم مَن ضعَّفه تضعيفًا شديدًا، لكن لعلَّ الأمر هنا أيسر، فليس هذا مرفوعًا للنَّبيِّ ﷺ، ويقوِّيه: ما أخرجه سعيد بن منصورٍ في التَّفسير برقم: (٨٧٠)، والطَّبريُّ في تفسيره: (٩/ ١٨٣)، مِن طريق أبي معشرٍ، وهو: ضعيفٌ.

ليثًا: هل بقي أحدٌ لم تبلغه الدَّعوة؟ قال: كان مجاهدٌ يقول: حيثما يأتِ القرآنُ فهو داعٍ، وهو نذيرٌ، ثمَّ قرأ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]»[١]، وعن مجاهدٍ: «﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ مَن أسلم مِن العجم وغيرهم»[٢]، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ، «قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٩]، يعني: أهل مكَّة، ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾، يعني: ومَن بلغه هذا القرآن، فهو له نذيرٌ»[٣]، أخبرنا ابن وهبٍ قال: سمعت سفيان الثَّوريَّ يحدِّث حديثًا، لا أعلمه إلَّا عن مجاهدٍ: أنَّه قال في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٩] العرب، ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: العجم[٤]، أخبرنا ابن وهبٍ قال: قال ابن زيدٍ في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال: يقول مَن بلغه القرآن فأنا نذيره، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، قال: فمَن بلغه القرآن، فرسول الله ﷺ نذيره[٥]، قال ابن جريرٍ بعد سرد الآثار: «قال

(١) أخرجه الطَّبريُّ في تفسيره: (٩/ ١٨٣).

(٢) حسنٌ: أخرجه الطَّبريُّ في تفسيره: (٩/ ١٨٣)، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات برقم: (٥٩٥).

(٣) صحيحٌ: أخرجه الطَّبريُّ في تفسيره: (٩/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره برقم: (٧١٦٣)، والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات برقم: (٥٩٤).

(٤) إسناده صحيحٌ إلى سفيان، أخرجه الطَّبريُّ في تفسيره: (٩/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره برقم: (٧١٦٢).

(٥) إسناده صحيحٌ، أخرجه الطَّبريُّ في تفسيره: (٩/ ١٨٤).

أبو جعفر: فمعنى هذا الكلام: لأنذركم بالقرآن -أيُّها المشركون- وأنذر مَن بلغه القرآن مِن النَّاس كلِّهم»(١).

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) تفسير الطّبريّ، (٩/ ١٨٤).

ﭐلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِ
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّ
هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلۡأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّ
وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال ﷺ: «مَا
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ،
وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ
تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

فهذه الأمّة حفظ الله لها ما أنزله علىٰ نبيّها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فما في تفسير القرآن أو نقل الحديث أو تفسيره مِن غلطٍ، فإنَّ الله يقيم له مِن الأمّة من يبيّنه ويذكر الدّليل علىٰ غلط الغالط وكذِب الكاذب، **فإنَّ هذه الأمّة لا تجتمع علىٰ ضلالةٍ، ولا يزال فيها طائفةٌ ظاهرةٌ علىٰ الحقّ حتّىٰ** تقوم السّاعة، إذ كانوا آخر الأمم، **فلا نبيّ بعد نبيّهم، ولا كتاب بعد** كتابهم.

وكانت الأمم قبلهم إذا بدّلوا وغيّروا بعث الله نبيًّا يبيّن لهم، ويأمرهم وينهاهم، ولم يكن بعد محمّدٍ نبيٌّ، وقد ضمن الله أن يحفظ ما أنزله مِن الذّكر، وأنّ هذه الأمّة لا تجتمع علىٰ ضلالةٍ، بل أقام الله لهذه الأمّة -في كلّ عصرٍ- مَن يحفظ به دِينه؛ مِن أهل

(١) متّفقٌ عليه: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٤٩٨١)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (١٥٢).

العِلم والقرآن، وينفي به تحريف الغالين وانتحال المضلِّين وتأويل الجاهلين، فمعرفة ما أمر الله عباده أمرًا عامًّا هو ممَّا نقلته الأمَّة عن نبيِّها نقلًا متواترًا، وأجمعت عليه، مثل بيان شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وأنَّه أُرسل إلىٰ جميع النَّاس، أمِّيِّهم وغير أمِّيِّهم، وإقام الصَّلوات الخمس، وإيتاء الزَّكاة، وصيام شهر رمضان، وحجِّ البيت العتيق مَن استطاع إليه سبيلًا، وإيجاب الصِّدق، وتحريم الفواحش والظُّلم، والأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فالمسلمون -عندهم منقولًا عن نبيِّهم نقلًا متواترًا- ثلاثة أمورٍ: لفظُ القرآن، ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها، والسُّنَّة المتواترة وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن»(١).

وذهبت جماعةٌ مِن أهل العِلم إلىٰ أنَّ كلَّ مَن مات علىٰ الكفر فهو في النَّار، ولو لم يأته نذيرٌ، واستدلُّوا بظواهر آياتٍ مِن كتاب الله، وبأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ، فمِن الآيات التي استدلُّوا بها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقوله: ﴿إِنَّ

(١) الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٣/ ١٠).

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقوله ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، إلىٰ غير ذلك مِن الآيات.

وظاهر جميع هذه الآيات العموم؛ لأنَّها لم تخصِّص كافرًا دُون كافرٍ؛ بل ظاهرها شمول جميع الكفَّار.

ومِن الأحاديث الدَّالَّة علىٰ أنَّ الكفَّار لا يُعذرون في كفرهم بالفترة: ما أخرجه مسلمٌ في صحيحه: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَّىٰ دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[1]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»[2]، وفي روايةٍ له: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَىٰ وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»[3]، إلىٰ غير ذلك مِن الأحاديث الدَّالَّة علىٰ عدم عُذر المشركين بالفترة.

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٠٣).

(٢) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٩٧٦).

(٣) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٩٧٦).

وأجاب أهل هذا القول عن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] مِن أربعة أوجهٍ:

الأوَّل: أنَّ التَّعذيب المنفيَّ في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ الآية [الإسراء: ١٥]، وأمثالها مِن الآيات: إنَّما هو التَّعذيب الدُّنيويُّ؛ كما وقع في الدُّنيا مِن العذاب بقوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وقوم لوطٍ، وقوم شعيبٍ، وقوم موسىٰ وأمثالهم، وإذًا فلا ينافي ذلك التَّعذيب في الآخرة، ونسَبَ هذا القولَ القرطبيُّ، وأبو حيَّان، والشَّوكانيُّ، وغيرهم في تفاسيرهم، إلىٰ الجمهور.

الوجه الثَّاني: أنَّ محلَّ العُذر بالفترة المنصوص في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ الآية [الإسراء: ١٥]، وأمثالها في غير الواضح الذي لا يخفىٰ علىٰ ذي مسكة من عقل، أمَّا الواضح الذي لا يخفىٰ علىٰ مَن عنده عقل، كعبادة الأوثان، فلا يُعذر فيه أحدٌ؛ لأنَّ الكفَّار يقرُّون بأنَّ الله هو ربُّهم، الخالق، الرَّازق، النَّافع، الضَّارُّ، ويتحقَّقون كلَّ التَّحقُّق أنَّ الأوثان لا تقدر علىٰ جلب نفعٍ ولا علىٰ دفع ضرٍّ، كما قال عن قوم إبراهيم عليه وعلىٰ نبيِّنا الصَّلاة والسَّلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، وكما جاءت الآيات القرآنيَّة بكثرةٍ بأنَّهم وقت الشَّدائد يخلصون الدُّعاء لله وحده، لعِلمهم أنَّ غيره لا ينفع ولا يضرُّ، كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، إلىٰ غير ذلك مِن الآيات،

ولكنَّ الكفَّار غالطوا أنفسهم، لشدَّة تعصُّبهم لأوثانهم، فزعموا أنَّها تقرِّبهم إلىٰ الله زُلفىٰ، وأنَّها شفعاؤهم عند الله، مع أنَّ العقل يقطع بنفي ذلك.

الوجه الثَّالث: أنَّ عندهم بقيَّة إنذارٍ ممَّا جاءت به الرُّسل الذين أُرسلوا قبل نبينا ﷺ، كإبراهيم عليه السلام وغيره، وأنَّ الحجَّة قائمةٌ عليهم بذلك، وجزم بهذا النَّوويُّ في شرح مسلمٍ[1].

الوجه الرَّابع: ما جاء مِن الأحاديث الصَّحيحة عن النَّبيِّ ﷺ، الدَّالَّة علىٰ أنَّ بعض أهل الفترة في النَّار، كما قدَّمنا بعض الأحاديث الواردة بذلك في صحيح مسلمٍ وغيره[2].

قال النَّوويُّ عليه رحمة الله: «قوله «أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: فِي النَّارِ، فَلَمَّا قَفَّىٰ دَعَاهُ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» فيه: أنَّ مَن مات علىٰ الكفر فهو في النَّار، ولا تنفعه قرابة المقرَّبين، وفيه: أنَّ مَن مات في الفترة علىٰ ما كانت عليه العرب مِن عبادة الأوثان فهو مِن أهل النَّار، وليس هذا مؤاخذةً قبل بلوغ الدَّعوة، فإنَّ هؤلاء كانت قد بلغتهم دَعوة إبراهيم وغيره مِن الأنبياء صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليهم، وقوله ﷺ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» هو مِن حُسن العشرة، للتَّسلية بالاشتراك في المصيبة»[3].

---

(١) ينظر: شرح النَّوويِّ علىٰ مسلم، (٣/ ٧٩).
(٢) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشّنقيطيّ، (٣/ ٥٦٢-٥٦٥).
(٣) ينظر: شرح النَّوويِّ علىٰ مسلمٍ، (٣/ ٧٩).

والأظهر أنَّه يُستثنىٰ مِن هذا مَن لم تقم عليه الحُجَّة في الدُّنيا بالرِّسالة، كالأطفال والمجانين وأهل الفترات، لحديث الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا، لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»(١).

قال الشَّيخ رحمه الله في أطفال المشركين: «والصَّواب أن يقول فيهم: الله أعلم بما كانوا عاملين، ولا يُحكم لمعيَّنٍ منهم بجنَّةٍ ولا نارٍ، وقد جاء في عدَّة أحاديث أنَّهم يوم القيامة في عرَصات القيامة، يؤمرون وينهَون، فمَن أطاع دخل الجنَّة، ومَن عصىٰ دخل النَّار»(٢).

ومصداق ما قرَّره رحمه الله في كتاب الله، قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]،

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (١٦٣٠١)، وابن راهويه في مسنده برقم: (٤١)، وابن حبَّان في صحيحه برقم: (٧٣٥٧).

(٢) ينظر: الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية، (٦٦/٣).

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباريّ، عن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنَّه كان يقرأ: «وأمَّا الغلام فكان كافرًا، وكان أبواه مؤمنين»[(١)].

فالجنَّة لا يدخلها إلَّا الموحِّدون، عَنْ زَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَلِيًّا، بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثْتَ فِي الحَجَّةِ؟ قَالَ: «بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ: أَنْ لَا يَطُوفَ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ إِلَىٰ مُدَّتِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَلَا يَجْتَمِعُ المُشْرِكُونَ وَالمُسْلِمُونَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا»[(٢)].



---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم: (١٢٨٧٥)، وعبد الرَّزَّاق في تفسيره برقم: (١٧٠٤)، ولكن ذكر فقط: (أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا)، وذكره البخاريُّ في صحيحه (٤/١٥٦).

(٢) صحيحٌ: أخرجه التِّرمذيُّ في سننه برقم: (٣٠٩٢) وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وأحمد في مسنده برقم: (٥٩٤)، والحميديُّ في مسنده برقم: (٤٨)، والحاكم في المستدرك برقم: (٤٣٧٦) وقال: «صحيحٌ علىٰ شرط الشَّيخين، ولم يخرجاه»، ولجزءٍ من الحديث شاهدٌ في صحيح البخاريِّ برقم: (٣٦٩)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (١٣٤٧)، ولفظ البخاريِّ: «قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ: لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ».

فصلٌ

ثمَّ انتشر في الأعصار المتأخِّرة عند طائفةٍ مِن أهل العِلم أنَّ الجاهل يُعذر بجهله في ترك التَّوحيد والوقوع في الكفر البواح، إذا كان يشهد الشَّهادتين، وإن بلغَته الرِّسالة، واحتجُّوا بالمتشابِه مِن الأدِّلة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ، فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ»(١)، قال ابن حزمٍ رحمه الله: «فهذا إنسانٌ جهل إلىٰ أن مات؛ أنَّ الله عز وجل يقدر علىٰ جمع رماده وإحيائه، وقد غفر له لإقراره وخوفه وجهله»(٢).

وقد تتابع عددٌ مِن أهل العِلم علىٰ ما قرَّره ابن حزمٍ، وجعلوه أصلًا لهم في مسألة العُذر بالجهل، حتَّىٰ لو كان ذلك في أصل المِلَّة، وهذا خطأٌ مِن وجوهٍ:

---

(١) متَّفقٌ عليه: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٣٨٤١)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٧٥٦).

(٢) ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، لابن حزمٍ، (٣/ ١٤٠).

أوَّلًا: أنَّه ليس في الحديث أنَّه شكٌّ في قدرة الله، وإنَّما هو شيءٌ فهِمه ابن حزمٍ، وقلَّده عليه غيره، وهناك احتمالاتٌ أخرىٰ، منها أنَّه أصابه الذُّهول مِن شدَّة فرقه وخوفه.

ثانيًا: لو كان ما فعله كفرٌ يخرج مِن الملَّة لما قال في الحديث -في رواية أحمد بإسنادٍ صحيحٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، «أَنَّ رَجُلًا لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا التَّوْحِيدَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ، فَخُذُونِي وَاحْرُقُونِي . . .»[1] الحديث، فقوله: «إِلَّا التَّوْحِيدَ» دليلٌ بيِّنٌ أنَّ ما فعله لم يكن كفرًا يخرجه مِن الملَّة.

ثالثًا: أنَّ الجهل بشيء مِن أسماء الله وصفاته وأفعاله ليس كفرًا مخرجًا مِن الملَّة، ونظير ما تقدَّم قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل

---

(١) **صحيحٌ**: أخرجه أحمد في مسنده برقم: (٣٧٨٥)، مِن طريق عاصم بن بهدلة، عن أبي وائلٍ، عن ابن مسعودٍ، وعاصمٌ رحمه الله صدوقٌ له أوهامٌ، ولكنَّ عاصم له متابعةٌ عند أبي يعلىٰ في مسنده برقم: (٥١٠٥)، تابعه الأعمش عن أبي وائلٍ، والرَّاوي عن الأعمش ضعيفٌ، فبه يتقوَّىٰ الأثر، وأخرجه أحمد في مسنده برقم: (٨٠٤٠) مِن طريق حمَّاد عن ثابتٍ عن أبي رافعٍ عن أبي هريرة مرفوعًا، وهذا إسناد أئمَّةٍ ثقاتٍ، وله شاهدٌ آخر عند أبي يعلىٰ في مسنده برقم: (٥٠٥٦)، وشاهدٌ آخر عند الطَّبرانيِّ في المعجم الكبير برقم: (٩٧٥٨)، وفي هذا كفايةٌ.

لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقالت عائشة الموحدِّة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما: «مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ»[١]، وقال الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ: «أَوَ يَضْحَكُ رَبُّنَا؟»[٢]، ولم يكفِّر العلماءُ الأشاعرةَ المتأوِّلين للصِّفات، لأنَّ الجهل في هذا واردٌ.

وينبغي أن يفرَّق بين مَن أنكر الصِّفات؛ مثل صفات الحياة والعِلم والقدرة، وبين مَن جهل شيئًا مِن ذلك، وكذا الاستدلال بحديث أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكُفَّارُ يَنُوطُونَ سِلَاحَهُمْ بِسِدْرَةٍ، وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»[٣]، وقد قال أهل السُّنن: إنَّهم لم يكفروا مع

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٩٧٤).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في التَّوحيد، برقم: (٤٦١)، والطَّبرانيُّ في المعجم الأوسط، برقم: (٤٨٨٥).

(٣) **صحيحٌ**: أخرجه التِّرمذيُّ في سننه برقم: (٢١٨٠) وقال: (هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ)، وأحمد في مسنده برقم: (٢١٩٠٠)، وابن حبَّان في صحيحه برقم: (٦٧٠٢).

وقوعهم بالشِّرك، لأنَّهم حديثو عهدٍ بإسلامٍ، وهذا ليس صوابًا، فلو كانوا وقعوا في الشِّرك لأُمروا بالتَّوبة، فإنَّ بني إسرائيل لمَّا اتخذوا العِجل أُمروا بالتَّوبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]، لأنَّهم وقعوا في الشِّرك، وأمَّا حين سألوا موسىٰ عليه السلام فإنَّهم لم يفعلوا، فاكتفىٰ موسىٰ عليه السلام بموعظتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]، وهكذا قول بعض المسلمين (اجعل لنا ذات أنواطٍ)، هو مِن هذا الباب، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عز وجل قَالَ: قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

---

(١) **متَّفقٌ عليه**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٦٤٩١)، ومسلمٌ في صحيحه، برقم: (١٣١).

وهكذا، كلُّ ما استدلَّ به مَن يرىٰ الجهل عذرًا مطلقًا إنما هي في أمورٍ جزئيَّةٍ، بل هي مِن المتشابه، فهم فرُّوا مِن التَّكفير بزعمهم، ووقعوا في تأويل النُّصوص المحكَمة المجمَع عليها، قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: ١١٦]، وهذا مِن المحكَم المتَّفق عليه، الذي لا اختلاف فيه بين الأمَّة، وقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: ١١٦] مِن المتشابه الذي قد تكلَّم العلماء فيه»(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمرتدُّ مَن أشرك بالله تعالىٰ، أو كان مبغضًا للرَّسول ﷺ، ولِما جاء به، أو ترك إنكار منكرٍ بقلبه، أو توهَّم أنَّ أحدًا مِن الصَّحابة أو التَّابعين أو تابعيهم قاتلَ مع الكفَّار أو أجاز ذلك، أو أنكر مجمَعًا عليه إجماعًا قطعيًّا، أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكَّل عليهم ويدعوهم ويسألهم»(٢).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبالجملة فالشِّرك أعظم مِن التَّكذيب بالرِّسالة، ولهذا كان المشركون أكفرَ مِن اليهود والنَّصارىٰ المكذِّبين برسالته»(٣).

ومصداق ما ذكره الشَّيخ في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ [الكهف: ١٥].

(١) ينظر: تفسير القرطبيِّ، (٥/ ٢٤٥).
(٢) ينظر: الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية، (٥/ ٥٣٥).
(٣) ينظر: الردُّ علىٰ البكريِّ، (١/ ٣٠١).

وقال رحمه الله: «ولمَّا كان الشَّيخ في قاعة التَّرسيم، دخل إلىٰ عنده ثلاثة رهبانٍ مِن الصَّعيد، فناظرهم وأقام عليهم الحجَّة بأنَّهم كفَّارٌ، وما هم علىٰ الذي كان عليه إبراهيم والمسيح، فقالوا له: نحن نعمل مثل ما تعملون، أنتم تقولون بالسَّيِّدة نفيسة، ونحن نقول بالسَّيِّدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم علىٰ أنَّ المسيح ومريم أفضل مِن الحُسين ومِن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصَّالحين الذين قبلكم، ونحن كذلك، فقال لهم: وأيُّ مَن فعل ذلك ففيه شبهٌ منكم، وهذا ما هو دِين إبراهيم الذي كان عليه، فإنَّ الدِّين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام أن لا نعبد إلَّا الله وحده لا شريك له ولا ندَّ له ولا صاحبة له ولا ولد له، ولا نشرك معه ملَكًا ولا شمسًا ولا قمرًا ولا كوكبًا، ولا نشرك معه نبيًّا مِن الأنبياء ولا صالحًا ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وأنَّ الأمور التي لا يقدر عليها غير الله لا تُطلب مِن غيره، مثل إنزال المطر وإنبات النَّبات وتفريج الكربات والهُدىٰ مِن الضَّلالات وغفران الذُّنوب؛ فإنَّه لا يقدر أحدٌ مِن جميع الخلق علىٰ ذلك، ولا يقدر عليه إلَّا الله»(١).

وقال ابن جرير رحمه الله عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]: «ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنَّه لا يكفر بالله أحدٌ إلَّا مِن حيث يعلم، لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم؛ أنَّهم

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (١/ ٣٧٠).

كانوا يحسبون فيه أنَّهم يحسنون صُنعه، كانوا مثابين مأجورين عليها، ولكنَّ القول بخلاف ما قالوا، فأخبر جلَّ ثناؤه عنهم أنَّهم بالله كفرةٌ، وأنَّ أعمالهم حابطةٌ»(١).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِن أعظم كيد الشَّيطان: أنَّه ينصب لأهل الشِّرك قبرًا معظَّمًا، يعظِّمه النَّاس، ثمَّ يجعله وثنًا يُعبد مِن دُون الله، ثمَّ يوحي إلىٰ أوليائه: أن مَن نهىٰ عن عبادته واتخاذه عيدًا وجعله وثنًا فقد تنقَّصه وهضم حقَّه، فيسعىٰ الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته، ويكفِّرونه، وذنبُه عند أهل الإشراك: أمره بما أمر الله به ورسوله ونهيه عمَّا نهىٰ الله عنه ورسوله، مَن جعله وثنًا وعيدًا، وإيقاد السُّرج عليه، وبناء المساجد والقباب عليه، وتجصيصه، وإشادته، وتقبيله، واستلامه، ودعائه، أو الدُّعاء به، أو السَّفر إليه، أو الاستغاثة به مِن دُون الله، ممَّا قد علم بالاضطرار مِن دِين الإسلام أنَّه مضادٌّ لمَا بعث الله به رسوله ﷺ؛ مِن تجريد التَّوحيد لله، وأن لا يُعبد إلَّا الله»(٢).

رابعًا: ممَّا يُعلم يقينًا أنَّ طريقة القرآن والسُّنَّة في إقامة الحجَّة تكون للأئمَّة مِن الملوك والأحبار والرُّهبان والعامَّة تبعٌ لهم، وليس في القرآن والسُّنَّة أنَّ الحجَّة تُقام علىٰ كلِّ فردٍ مِن النَّاس.

---

(١) ينظر: تفسير الطَّبريِّ، (١٥/ ٤٢٩).

(٢) ينظر: إغاثة اللَّهفان، لابن القيِّم، (١/ ٢١٢).

قال الإمام ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (جامع بيان العِلم وفضله): بابُ فساد التَّقليد ونفيه والفرق بين التَّقليد والاتِّباع: «قد ذمَّ الله تبارك وتعالىٰ التَّقليد في غير موضعٍ مِن كتابه، فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ورُوي عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره، قال: «لَمْ يَعْبُدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمْ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ فَاتَّبَعُوهُمْ»(١).

وقال عديُّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَفِي عُنُقِي الصَّلِيبُ، فَقَالَ لِي: يَا عَدِيُّ: أَلْقِ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا لَمْ نَتَّخِذْهُمْ أَرْبَابًا؟ قَالَ: بَلَىٰ، أَلَيْسَ يُحِلُّونَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فَتُحِلُّونَهُ وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ فَتُحَرِّمُونَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَىٰ، فَقَالَ: تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(٢).

---

(١) أثر حذيفة رجاله ثقاتٌ: أخرجه عبد الرَّزَّاق في تفسيره برقم: (١٠٧٣)، والطَّبريُّ في تفسيره (١١/ ٤١٩)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان برقم: (٨٩٤٨)، وابن عبد البرِّ في جامع بيان العلم وفضله برقم: (١٨٦٤).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ في سننه برقم: (٣٠٩٥) وقال: «هذا حديثٌ غريبٌ، لا نعرفه إلَّا مِن حديث عبد السَّلام بن حربٍ، وغطيف بن أعين ليس بمعروفٍ في الحديث»، والبخاريُّ في التَّاريخ الكبير (٧/ ١٠٦)، وفيه غطيف بن أعين: ضعيفٌ، وللحديث شاهدٌ عند عبد الرَّزَّاق في مصنَّفه برقم (١٠٧٣)، والطَّبريُّ في تفسيره (١١/ ٤١٩) مِن طريق أبي البختريِّ عن حذيفة موقوفًا، وقال الشَّيخ الألبانيُّ في صحيح سنن التِّرمذيِّ (٣/ ٢٤٧): «حسنٌ».

وَعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: ٣١]، أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ أَمَرُوهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا أَطَاعُوهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَمَرُوهُمْ، فَجَعَلُوا حَلَالَ اللَّهِ حَرَامَهُ، وَحَرَامَهُ حَلَالَهُ فَأَطَاعُوهُمْ، فَكَانَتْ تِلْكَ الرُّبُوبِيَّةَ(١).

وَعَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، قَالَ: قِيلَ لِحُذَيْفَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، أَكَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ؟ فَقَالَ: «لَا، وَلَكِنْ كَانُوا يُحِلُّونَ لَهُمُ الْحَرَامَ فَيُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَيُحَرِّمُونَهُ»(٢).

وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزُّخرف: ٢٣-٢٤]، فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزُّخرف: ٢٤]، وفي هؤلاء ومثلهم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وقال الله ﷻ عائبًا لأهل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه برقم: (٣٤٩٣٦)، وابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله برقم: (١٨٦٣).

(٢) تقدَّم تخريجه ص٣٤، ورجالهُ ثقاتٌ.

الكفر وذامًا لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣]، وقال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ومثل هذا في القرآن كثيرٌ؛ مِن ذمِّ تقليد الآباء والرُّؤساء»[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠]، فقد بيَّن أنَّ مَن **اتَّخذ الملائكة والنَّبيِّين أربابًا فهو كافرٌ، فمَن اتَّخذ مِن دُونهم أربابًا كان أولىٰ بالكُفر**، وقد ذكر أنَّ النَّصارىٰ اتَّخذوا مَن هو دُونهم أربابًا بقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]»[2].

وقال: «ووصفهم بالشِّرك وبأنَّهم يعبدون غير الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فأخبر أنَّهم اتخذوا مِن دون الله

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ٩٧٥-٩٧٧).

(٢) ينظر: الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٢/ ١١٩).

أربابًا، واتَّخذوا المسيح ربًّا، وما أُمروا إلَّا ليعبدوا إلهًا واحدًا، وهؤلاء باتِّخاذهم غيره أربابًا عبدوهم، فأشركوا بالله ﷻ عمَّا يشركون»(١).

وقال: «وأمَّا وصفهم بالشِّرك ففي قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التَّوبة: ٣١]، فنزَّه نفسه عن شِركهم، وذلك أنَّ أصل دِينهم ليس فيه شركٌ، فإنَّ الله إنَّما بعث رسله بالتَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزُّخرف: ٤٥]»(٢).

وروىٰ الشَّيخان، عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلىٰ هِرقل: «فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»(٣)، فقوله: «عَلَيْكَ إِثْمَ

(١) ينظر: الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٣/ ٦٥).

(٢) ينظر: الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٣/ ١١٢).

(٣) **متَّفقٌ عليه**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٧)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (١٧٧٣).

الْأَرِيسِيِّينَ» صريحٌ أنَّ الحجَّة قامت عليهم، وأنَّهم لا يُعذرون، وأنه يتحمَّل وِزرهم.

وقال ابن كثيرٍ: «وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلىٰ قول غيره، فقدَّمتم عليه غيره فهذا هو الشِّرك، كما قال تعالىٰ: ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد روىٰ التِّرمذيُّ في تفسيرها، عن عديِّ بن حاتم رضي الله عنه، أنَّه قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا عَبَدُوهُمْ، فَقَالَ: بَلْ إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، وحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»[(١)] [(٢)].

خامسًا: **أنَّ طلب العِلم فرضٌ علىٰ المكلَّفين، لمعرفة الأمر الذي خُلقوا لأجله، وأنَّه لا يُعذر بجهله في وقوعه في الكفر البواح أو تقليده لمن يضلُّه،** عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا

(١) تقدَّم تخريجه ص٢٩.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثيرٍ، (٣/ ٣٢٩).

وَأَضَلُّوا»[١]، وفيه إشارةٌ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، قال ابن جرير: «﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [المائدة: ٧٧] يقول تعالىٰ ذِكره: وأضلَّ هؤلاء اليهود كثيرًا مِن النَّاس، فحادوا بهم عن طريق الحقِّ، وحملوهم علىٰ الكفر بالله والتَّكذيب بالمسيح، ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] يقول: وضلَّ هؤلاء اليهود عن قصد الطَّريق، وركبوا غير محجَّة الحقِّ، وإنَّما يعني تعالىٰ ذِكره بذلك، كفرَهم بالله، وتكذيبَهم رسله: عيسىٰ ومحمَّدًا ﷺ، وذهابَهم عن الإيمان وبعدَهم منه، وذلك كان ضلالهم الذي وصفهم الله به»[٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»[٣]، وعَنْ مِرْدَاسٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، حَتَّىٰ يَبْقَىٰ كَحُثَالَةِ التَّمْرِ أَوِ الشَّعِيرِ، لَا يُبَالِي بِهِمْ شَيْئًا»[٤]، وهو يذِّكر بحديث: عَنْ عِيَاضِ بْنِ

---

(١) **متَّفقٌ عليه**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (١٠٠)، ومسلمٌ في صحيحه، برقم: (٢٦٧٣).

(٢) ينظر: تفسير الطَّبريُّ، (٨/ ٥٨٥).

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ في سننه برقم: (٢٣٢٢)، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ»، وابن ماجه في سننه برقم: (٤١١٢)، والبزَّار في مسنده برقم: (١٧٣٦)، وقال الشَّيخ الألبانيُّ في الصَّحيحة (٦/ ٧٠٣): حسنٌ.

(٤) **صحيحٌ**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٦٤٣٤)، وأحمد في مسنده برقم: (١٧٧٣٠).

حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»(١)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَرْجِعَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي إِلَىٰ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ»(٢).

وأخرج ابن جريرٍ مِن طرقٍ، عن ابن عبَّاس قال: «تفسير القرآن علىٰ أربعة أوجهٍ: وجهٍ تعرفه العرب مِن كلامها، وتفسيرٌ لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمه إلَّا الله تعالىٰ ذكره»(٣)، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اغْدُ عَالِمًا،

---

(١) تقدَّم تخريجه ص١٣.

(٢) أخرجه الطَّيالسيُّ في مسنده، برقم: (٢٦٢٣).

(٣) أخرجه الطَّبريُّ في تفسيره، (١/ ٧٠)، وفيه مؤمَّل بن إسماعيل، وهو: ضعيفٌ، وأيضًا فيه انقطاعٌ، فهو مِن طريق أبي الزِّناد عن ابن عبَّاسٍ، والظَّاهر أنَّه لم يلقه، وأخرجه الفريابيُّ في القدر برقم: (٤١٤)، والطَّبرانيُّ في مسند الشَّاميِّين برقم: (١٣٨٥) وفيه: أبو صالحٍ مولىٰ أمِّ هانئٍ (باذام) وهو ضعيفٌ، وقال ابن حبَّان: «لم يسمع مِن ابن عبَّاسٍ»، وأخرجه عبد الرَّزَّاق في تفسيره برقم: (٤) عن الثَّوريِّ عن ابن عبَّاسٍ، وقد يكون منقطعًا أو معضلًا. فالظَّاهر أنَّ الأثر له أصلٌ، ولعلَّه يحسَّن بالشَّواهد والمتابعات.

أَوْ مُتَعَلِّمًا، وَلَا تَغْدُ إِمَّعَةً فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ»(١)، وعنه رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «كُنَّا نَدْعُو الْإِمَّعَةَ فِي الجاهليَّة الَّذِي يُدْعَىٰ إِلَىٰ الطَّعَامِ، فَيَذْهَبُ مَعَهُ بِآخَرَ، وَهُوَ فِيكُمُ الْمُحْقِبُ دِينَهُ الرِّجَالَ الَّذِي يَمْنَحُ دِينَهُ غَيْرَهُ، فِيمَا يَنْتَفِعُ بِهِ ذَلِكَ الْغِيَرُ فِي دُنْيَاهُ، وَيَبْقَىٰ إِثْمُهُ عَلَيْهِ»(٢)، وعن كُمَيْل بن زيادٍ النَّخعيِّ، قال: «أخذَ عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بيدي، فأخرجني ناحية الجَبَّانة، فلمَّا أصْحَرَ جعلَ يتنفَّس، ثمَّ قال: يا كُميل بن زياد، القلوبُ أوعيةٌ، فخيرُها أوعاها للخير، احفظْ عنِّي ما أقول: النَّاسُ ثلاثةٌ؛ فعالِمٌ ربَّانيٌّ، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيل نجاةٍ، وهَمَجٌ رُعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلون مع كلِّ ريحٍ، لم يستضيئوا بنُور العِلم، ولم يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيقٍ»(٣)، قال ابن القيِّم: «وقولُه: «أتباع كلِّ ناعقٍ»؛ أي:

---

(١) **صحيحٌ**: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه برقم: (٢٦١٢٠)، مِن طريق أبي عبيد بن عبد الله بن مسعودٍ عن أبيه، وأخرجه -أيضًا- الطَّحاويُّ في شرح مشكل الآثار (١٥/ ٤٠٧) مِن طريق عاصم بن بهدلة عن زرِّ بن حبيشٍ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، وهذا السَّند يقوِّي ما قبله، وله شاهدٌ آخر عند الطَّبرانيِّ في المعجم الكبير برقم: (٨٧٥٢)، بسندٍ فيه ضعفٌ، لكنَّه يتقوَّىٰ بما قبله.

(٢) إسناده صحيحٌ: أخرجه الطَّحاويُّ في شرح مشكل الآثار (١٥/ ٤٠٨)، والطَّبرانيُّ في المعجم الكبير برقم: (٨٧٦٧)، والحاكم في مستدركه برقم: (٧١٧٨).

(٣) أخرجه أبو نُعيم في الحلية (١/ ٧٩)، والخطيب البغداديُّ في الفقيه والمتفقِّه برقم: (١٧٦)، والشَّجريُّ في أماليه، برقم: (٣٣٢)، وقال ابن عبد البرِّ في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٤): «وهو حديثٌ مشهورٌ عند أهل العِلم، يستغني عن الإسناد، لشهرته عندهم».

مَنْ صاحَ بهم ودعاهم تبعوه، سواءٌ دعاهم إلىٰ هدىٰ أو إلىٰ ضلالٍ، فإنَّهم لا عِلم لهم بالذي يُدْعَونَ إليه؛ أحقٌّ هو أم باطلٌ، فهم مستجيبون لدعوته، وهؤلاء مِن أضرِّ الخَلق علىٰ الأديان؛ فإنَّهم الأكثرون عددًا، الأقلُّون عند الله قدْرًا، وهم حطب كلِّ فتنةٍ، بهم تُوقد ويُشَبُّ ضِرامها؛ فإنَّها يعتزلُها أُولو الدِّين، ويتولَّاها الهمَج الرَّعاع، وسُمِّي داعيهم: ناعقًا؛ تشبيهًا لهم بالأنعام التي ينعِق بها الرَّاعي، فتذهب معه أين ذهب؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وهذا الذي وصفهم به أمير المؤمنين هو مِن عدم عِلمهم وظلمة قلوبهم، فليس لهم نورٌ ولا بصيرةٌ يفرِّقون بها بين الحقِّ والباطل، بل الكلُّ عندهم سواءٌ»(١).

وروىٰ الشيخان عن عليٍّ ﷺ قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ، أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي

(١) ينظر: مفتاح دار السَّعادة، لابن القيِّم، (١/ ٣٥٩).

الْمَعْرُوفِ»[١]، دليلٌ علىٰ أنّه لا يُعذر فيما لا يسعه جهله، فكيف بطاعةِ مَن يأمره بعبادة غير الله؟ فطاعته مِن أعظم المنكَرات، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورىٰ: ٢١].

وعَنْ شَقِيقٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللهِ وَأَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنهما فَقَالَا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ» وَالْهَرْجُ الْقَتْلُ[٢].

فهذه الأدلّة وغيرها تدلّ علىٰ أنّ **الجهل بالدّين -وأعظمه التّوحيد- ذنبٌ**، كما جاء في الأدلّة وقرّره السّلف الصّالح، قال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥]، قال ابن كثيرٍ: «أي: هو شهيدٌ علىٰ نفسه، عالمٌ بما فعله، ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعال: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال مجاهدٌ: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: ولو جادل عنها فهو بصيرٌ عليها، وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: ولو اعتذر يومئذٍ بباطلٍ لا يقبل منه، وقال السّديّ: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: حجّته، وكذا قال

---

(١) **متّفقٌ عليه**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٤٣٤٠)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (١٨٤٠).

(٢) **متّفقٌ عليه**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٧٠٦٢)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٦٧٢).

ابن زيدٍ، والحسن البصريُّ، وغيرهم، واختاره ابن جريرٍ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزُّمر: ٦٤]، وليس كما فهم بعض المتأخِّرين أنَّه عذرٌ تُرفع به المؤاخذة.



(١) ينظر: تفسير ابن كثيرٍ، (٨/ ٢٧٧).

فصلٌ

ويجب التَّفريق بين الجاهل وبين مَن لم تبلغه الرسالة مطلقًا، فهذا لا يُوصف بالجهل المذموم.

قال العلَّامة المعلِّميُّ رحمه الله بعد أن ساق الأحاديث في ذلك: «إذا تقرَّر ما ذُكر؛ فلا ريب أنَّ الجاهل بمعنىٰ (لا إله إلَّا الله) لا عِلم له بمضمونها، ولا يصحُّ أن يُقال: شهد بها (وهو يعلم)، (مؤمنًا بها قلبه)، (غير شاكٍّ)، (مستيقنًا بها قلبه)، (خالصًا مِن قلبه أو نفسه)، (صدقًا مِن قلبه)، فتدبَّرْ»[1].

وقال رحمه الله: «فإن قيل: أفلا يكفي الإنسان أن يكون معترفًا بصِدق الرَّسول في جميع ما جاء به مصدِّقًا به مسلِّمًا راضيًا ملتزمًا العمل بموجَب ذلك عازمًا عليه، فلمَّا سمع كلمة أن لا إله إلا الله وعلم أنَّ الرَّسول جاء بها اعترف بها وصدَّق وسلَّم، ورضي والتزم، وعزم علىٰ العمل بموجَبها مع جهله بمعناها، كما يكفيه نحو هذا في الآيات القرآنيَّة والأحاديث المتواترة، وإذا وقع منه عملٌ يخالف موجَبها عُذِرَ بالجهل؟ قلت: الأدلَّة التي قدَّمناها صريحةٌ في أنَّ المطلوب في الشَّهادة الاعترافُ والتَّصديق والتَّسليم والرِّضا والالتزام والعمل بالموجَب علىٰ وجه التَّحقيق في كلِّ واحدٍ منها، وذلك

(١) ينظر: رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله، للمُعلِّميّ اليمانيّ، (١/٨).

لا يكون إلَّا مع العِلم بالمعنىٰ كما قدَّمنا، فأمَّا حصول هذه الأمور بمجرَّد خبر المعصوم مع جهل المعنىٰ، فلا يكون علىٰ وجه التَّحقيق كما هو ظاهرٌ، وقد يجمع الجاهل بالمعنىٰ بين الاعتراف بلا إله إلا الله علىٰ الوجه المذكور وبين الاعتراف بما يناقض معناها، أعني الشِّركَ، وإنكارَ حقيقة معناها، أعني التَّوحيد، وهكذا يُقال في التَّصديق وبقيَّة الأمور، وحينئذٍ فلم يحصل له شيءٌ مِن المقصود، وهو أن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا»(١).

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، قال ابن جريرٍ رحمه الله بعد أن سرد الآثار عن السَّلف في تفسير الآية: «فمعنىٰ الآية: ومنهم مَن لا يكتب ولا يخطُّ ولا يعلم كتاب الله، ولا يدري ما فيه، إلَّا تخرُّصًا وتقوُّلًا علىٰ الله الباطل، ظنًّا منه أنَّه محقٌّ في تخرُّصه وتقوُّله الباطل، وإنَّما وصفهم الله تعالىٰ ذِكره بأنَّهم في تخرُّصهم علىٰ ظنٍّ أنَّهم محقُّون وهم مبطلون، لأنَّهم كانوا قد سمعوا مِن رؤسائهم وأحبارهم أمورًا حسبوها مِن كتاب الله»(٢)، فلم يجعل الله تعالىٰ ذلك عذرًا لهم، بل ذمَّهم وجعلهم في حُكم أحبارهم ورهبانهم.

---

(١) ينظر: رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله، للمُعلِّميِّ اليمانيِّ، (٢/ ٢٣-٢٤).

(٢) ينظر: تفسير الطَّبريِّ، (٢/ ١٦١).

وأخرج عبد بن حُميدٍ وابن أبي حاتمٍ عن الضَّحَّاك قال: «لا يُعذر أحدٌ حرٌّ، ولا عبدٌ، ولا رجلٌ، ولا امرأةٌ، لا يتعلَّم مِن القرآن جهده ما بلغ منه، فإنَّ الله يقول: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، يقول: كونوا فقهاء، كونوا علماء»(١).

وأخرج ابن المنذر مِن طريق عكرمة عن ابن عبَّاسٍ في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النِّساء: ١٨] الآية، قال: «هم أهل الشِّرك»(٢).

وأخرج عبد بن حُميدٍ، وابن المنذر، وابن أبي حاتمٍ عن أبي العالية في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: ١٧] الآية، قال: هذه للمؤمنين، وفي قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النِّساء: ١٨] الآية، قال: هذه لأهل النِّفاق، قوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النِّساء: ١٨]، قال: هذه لأهل الشِّرك(٣).



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم: (٣٧٥٣).

(٢) رجاله ثقاتٌ: أخرجه ابن المنذر في تفسيره برقم: (١٤٨٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتمٍ في تفسيره برقم: (٥٠١٥)، وابن المنذر في تفسيره برقم: (١٤٨٨).

فصلٌ

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجمهور النَّاس لا يعرفون معاني الكتب الإلهيَّة -التَّوراة والإنجيل والقرآن- إلَّا بمَن يبيِّنها ويفسِّرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللُّغة، فهؤلاء يجب عليهم طلب عِلم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، وهذا هو طلب العِلم المفروض علىٰ الخَلق، وكذلك ما بيَّنه الرَّسول ﷺ مِن معاني الكتاب الذي أنزله الله عليه، يجب علىٰ الخلق طلب عِلم ذلك ممَّن يعرفه، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرَّد اللِّسان، كما يُروىٰ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: تفسير القرآن علىٰ أربعة أوجهٍ: تفسيرٌ تعرفه العرب مِن كلامها، وتفسيرٌ لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمه إلَّا الله تبارك وتعالىٰ، فمَن ادَّعىٰ عِلمه فهو كاذبٌ»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّه ليس فهم كلِّ آيةٍ مِن القرآن فرضًا علىٰ كلِّ مسلمٍ، وإنَّما يجب علىٰ المسلم أن يعلم ما أمره الله به وما نهاه عنه، بأيِّ عبارة كانت، وهذا ممكنٌ لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجَم؛ مِن الفرس والتُّرك والهند والصقالبة والبربر، ومِن هؤلاء مَن يعلم اللِّسان العربيَّ، ومنهم مَن يعلم ما

(١) ينظر: الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٢/ ٥٤).

فرض الله عليه التَّرجمة، وقد قدَّمنا أنَّه يجوز ترجمة القرآن في غير الصَّلاة، والتَّعبير، كما يجوز تفسيره باتِّفاق المسلمين»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوجه الثَّالث: أنَّ النَّصارىٰ فيهم عربٌ كثيرٌ، مِن زمن النَّبيِّ ﷺ، وكلُّ مَن يفهم اللِّسان العربيَّ فإنَّه يمكن فهمه للقرآن، وإن كان أصل لسانه فارسيًّا أو روميًّا أو تركيًّا أو هنديًّا أو قبطيًّا، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب مِن علماء النَّصارىٰ قد قرأوا المصحف، وفهموا منه ما فهموا، وهم يفهمونه بالعربيَّة، واحتجُّوا بآياتٍ مِن القرآن، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا كيف تقوم الحجَّة علينا بكتابٍ لم نفهمه»(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا أصلٌ مضطردٌ في مباني الإسلام الخمسة، وفي الأحكام الظَّاهرة المجمَع عليها مِن مكلَّفٍ أن كان الجاحد لذلك معذورًا، مثل أن يكون حديث عهدٍ بالإسلام، أو قد نشأ بباديةٍ هي مظنَّة الجهل بذلك، لم يكفر حتَّىٰ يعرف أنَّ هذا دِين الإسلام، لأنَّ أحكام الكفر والتَّأديب لا تثبت إلَّا بعد بلوغ الرِّسالة، لا سيِّما فيما لا يُعلم بمجرَّد العقل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤]، وقال تعالىٰ:

(١) ينظر: الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٢/ ٦٦).
(٢) ينظر: الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٢/ ٦٦).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فالإنذار لمَن بلغه القرآن بلفظه أو معناه، فإذا بلغته الرِّسالة بواسطةٍ أو بغير واسطةٍ قامت عليه الحجَّة وانقطع عُذره، فأمَّا النَّاشئ بديار الإسلام ممَّن يعلم أنَّه قد بلغته هذه الأحكام فلا يُقبل قوله؛ أي لم أعلم ذلك، ويكون ممَّن جحد وجوبها بعد أن بلغه العِلم في ذلك، فيكون كافرًا كفرًا ينقل عن الملَّة، سواءٌ صلَّاها مع ذلك أو لم يصلِّها، وسواءٌ اعتقدها مستحبَّةً أو لم يعتقد، وسواءٌ رآها واجبةً علىٰ بعض النَّاس دُون بعضٍ أو لا، وسواءٌ تأوَّل في ذلك أو لم يتأوَّل، لأنَّه كذَّب الله ورسوله، وكفر بما ثبت أنَّ محمَّدًا ﷺ بُعث به»(١).

فأنت ترىٰ أنَّ شيخ الإسلام -عليه رحمة الله- **لا يرىٰ اشتراط إقامة الحجَّة علىٰ** مَن كان ناشئًا بين المسلمين، **لأنَّ مَن كانت هذه حاله لا يُقبل اعتذاره بالجهل، ولا ينفعه التَّأويل، فهو لا يخلو مِن حالين:**

- إمَّا أن يكون معرضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، ويكون مثل مَن قال الله ﷻ **فيهم ذامًّا لهم:** ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾

(١) ينظر: شرح عمدة الفقه، لابن تيمية، كتاب الصَّلاة، (ص: ٥١).

[الفتح: ١١]، ومثل مَن قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، وروىٰ الشَّيخان عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَىٰ فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَىٰ إِلَىٰ اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ»(١).

- وإمَّا أن يكون كافرًا بطاعته وتقليده لأئمَّة الضَّلال، كما تقدَّم.

وأمَّا قول شيخ الإسلام رحمه الله: «لكن لغلبة الجهل وقلَّة العِلم بآثار الرِّسالة في كثيرٍ مِن المتأخِّرين لم يمكن تكفيرهم بذلك، حتَّىٰ يتبين لهم ما جاء به الرَّسول ﷺ ممَّا يخالفه»(٢)، فهذا يحتمل أمرين:

---

(١) أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٦٦)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٢١٧٦).

(٢) ينظر: الاستغاثة في الرَّدِّ علىٰ البكريِّ، لابن تيمية، (ص: ٤١١).

١- إمَّا أن يقصد -عليه رحمة الله- في أحكام الدُّنيا الظَّاهرة، الذي يترتَّب عليه استحلال دمائهم وأموالهم ونحو ذلك، كما قال في موضعٍ آخر: «فإنَّ تكفير الشَّخص المعيَّن وجواز قتله موقوفٌ علىٰ أن تبلغه الحجَّة النَّبويَّة التي يكفر مَن خالفها»(١).

٢- وإمَّا يحتمل أنه يعذرهم مطلقًا، وأنَّ حكمهم حكم أهل الفترة، ومَن لم تبلغه الرسالة فهذا مخالفٌ لما أجمع عليه أهل العِلم؛ مِن أنَّ حجَّة الله علىٰ عبادة قائمةٌ علىٰ كلِّ مَن بلغه القرآن، ولا يُعذر بجهله في الكفر البواح وعبادة الأوثان كما تقدَّم، بل حتَّىٰ أهل الفترة اتَّفق أهل العِلم أنَّهم ماتوا مشركين كفَّارًا، وإن اختلفوا هل يُمتحنون في الآخرة، وعلىٰ كلِّ حالٍ فلا يوجد في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ مَن يعذر بترك التَّوحيد، فإنَّ هذا مناقضٌ للحكمة التي خلق الله العباد مِن أجلها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، **فمَن جعل الجهل عذرًا مطلقًا فقد أبطل حجَّة الله علىٰ خلقه**، وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، بل حتَّىٰ المجانين والصِّبيان لا يدخلون الجنَّة ابتداءً، بل يُمتحنون كما جاء في الخبر.

وحاشاه رحمه الله أن يردَّ النُّصوص بعقله، كما فعل الفلاسفة وأهل الكلام في أسماء الله وصفاته، فإنَّ الواجب هو التَّسليم لحكم الله

---

(١) ينظر: الاستغاثة في الرَّدِّ علىٰ البكريِّ، لابن تيمية، (ص: ٢٥٢).

تعالىٰ وترك معارضته، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوبة: ١١٤]، ولم يستثن ﷻ مِن هذا إلَّا مَن أكره وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان، قال ﷺ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ»(١)، وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»(٢).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وكلُّ مَن أعرض عن الاهتداء بالوحي -الذي هو ذِكر الله- فلا بدَّ أن يقول هذا يوم القيامة، فإن قيل فهل لهذا عذرٌ في ضلالةٍ إذا كان يحسب أنَّه علىٰ هدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، قيل لا عُذر لهذا وأمثاله مِن الضُّلَّال، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرَّسول ﷺ، ولو ظن أنَّه مهتدٍ فإنَّه مفرِّط بإعراضه عن اتِّباع داعي الهدىٰ، فإذا ضلَّ فإنَّما أتىٰ مِن تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف مَن

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٨٧٨).

(٢) **متَّفقٌ عليه**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (١٢٣٨)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٩٣).

كان ضلاله لعدم بلوغ الرِّسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكمٌ آخر، والوعيد في القرآن إنَّما يتناول الأوَّل، وأمَّا الثَّاني فإنَّ الله لا يعذِّب أحدًا إلَّا بعد إقامة الحجَّة عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩]، وهذا كثيرٌ في القرآن»[1].



(١) مفتاح دار السَّعادة، لابن القيِّم، (١/ ٤٤).

فصلٌ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا إذا كان في المقالات الخفيَّة؛ فقد يُقال: إنَّه فيها مخطئٌ ضالٌّ، لم تقم عليه الحجَّة التي يكفر صاحبها، لكنَّ ذلك يقع في طوائف منهم في الأمور الظَّاهرة التي تعلم العامَّة والخاصَّة مِن المسلمين أنَّها مِن دِين المسلمين، بل اليهود والنَّصارىٰ يعلمون أنَّ محمَّدا ﷺ بُعث بها، وكفر مخالفها؛ مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحدٍ سوىٰ الله مِن الملائكة والنَّبيِّين والشَّمس والقمر والكواكب والأصنام وغير ذلك، فإنَّ هذا أظهر شعائر الإسلام، ومثل أمره بالصَّلوات الخمس، وإيجابه لها وتعظيم شأنها، ومثل معاداته لليهود والنَّصارىٰ والمشركين والصَّابئين والمجوس، ومثل تحريم الفواحش والرِّبا والخمر والميسر ونحو ذلك، ثمَّ تجد كثيرًا مِن رؤسائهم وقعوا في هذه الأمور، فكانوا مرتدِّين»(١).

وكذا ما فهمه بعضهم ممَّا نُقل عن الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالةٍ للشَّريف أنَّه قال: «وأما الكذب والبهتان مثل قولهم: أنَّا نكفِّر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا علىٰ مَن قدِر علىٰ إظهار دِينه، وإنَّا نكفِّر مَن لم يكفر ولم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (٤/ ٥٤).

أضعافه، وكلُّ هذا مِن الكذب والبهتان الذي يصدُّون به عن دِين الله ورسوله، **وإذا كنَّا لا نكفِّر مَن عبد الصَّنم الذي علىٰ قبَّة عبد القادر، والصَّنم الذي علىٰ قبر أحمد البدويِّ، وأمثالهما، لأجل جهلهم وانعدام مَن ينبِّههم، فكيف نكفِّر مَن لم يشرك بالله أو لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل،** ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]»(١).

فمُراده -عليه رحمة الله- في الأحكام الظَّاهرة أحكام الدُّنيا، فلا يُعاملون معاملة الكفَّار، فلا بدَّ مِن استتابتهم، وأمَّا في الآخرة فقد قال ﷺ: «مَن كان مِن أهل الجاهليَّة عاملًا بالإسلام تاركًا للشِّرك فهو مسلمٌ، أمَّا مَن كان يعبد الأوثان ومات علىٰ ذلك قبل ظهور هذا الدِّين فهذا ظاهره الكفر، وإن كان يحتمل أنَّه لم تقم عليه الحجَّة الرِّساليَّة لجهله، وانعدام مَن ينبِّهه، لأنَّا نحكم علىٰ الظَّاهر، وأمَّا الحُكم علىٰ الباطن فذلك إلىٰ الله»(٢).

وقال عليه رحمة الله: «ما ذكرتم مِن قول الشَّيخ -يعني ابن تيمية- كلُّ مَن جحد كذا وكذا وقامت عليه الحجَّة أنَّكم شاكُّون في هؤلاء الطَّواغيت وأتباعهم، هل قامت عليهم الحجَّة؟ فهذا مِن العجب، كيف تشكُّون في هذا وقد أوضحته لكم مرارًا، **فإنَّ الذي لم تقم عليه الحجَّة هو الذي حديث عهدٍ بالإسلام، والذي نشأ**

---

(١) ينظر: الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة، (١/ ١٠٤).

(٢) ينظر: الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة، (١٠/ ٣٣٦).

ببادية بعيدة، أو يكون ذلك في مسألة خفيَّة؛ مثل الصرف والعطف، فلا يكفَّر حتىٰ يُعرَّف، وأمَّا أصول الدِّين التي أوضحها الله وأحكمها في كتابه فإنَّ حجَّة الله هو القرآن، فمَن بلغه القرآن فقد بلغته الحجَّة، ولكنَّ أصل الإشكال أنَّكم لم تفرِّقوا بين قيام الحجَّة وبين فهم الحجَّة، فإنَّ أكثر الكفار والمنافقين مِن المسلمين لم يفهموا حجَّة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]»(١).



(١) ينظر: الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة، (١٠/ ٩٣)، فتاوىٰ ومسائل محمَّد بن عبد الوهَّاب، (٤/ ١٢).

معنى قيام الحجة الرسالية

اعلم -رحمك الله- أن الجاهل المفرِّط الذي تمكن من العلم وتركه وأعرض عنه واشتغل بدنياه - لا يُعذر عند شيخ الإسلام، وكذلك عند ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ، فلا يدخل هذا عن النوع فيمن يعذر عندهما، ولو تأملت أحوال عامة المشركين وجدتهم داخلين في هذا النوع، فقيام الحجة الرسالية ليس المراد به في الاسم والوصف، وليس المراد به في دفع الذم والعيب والتنقص والإنكار، وليس المراد به الجهل الذي هو إعراض عن الشرع، وليس المراد به العلم بالفعل، فهذه الكلمة مجملة -أعني «قيام الحجة الرسالية»- تحتاج إلىٰ تفسير، وتحتاج الىٰ تأصيل والرجوع إلىٰ كلامه، فلا نفسر كلامه الحجة الرسالية بفهمنا نحن، وإنما هذه نصوص واضحة بينة من كلامه رحمه الله، فشيخ الإسلام يشترط الإمكان بالعلم، ولا يشترط العلم به بالفعل، وكذلك الشأن مع الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عند إطلاق لفظ الحجة الرسالية، فلا بد من معرفة مراده عندما يقيد الحكم بالكفر بقيام الحجة الرسالية ما المراد بها، فهو لا يخرج عن تقريرات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكذلك تلميذه ابن القيم، قال رحمه الله في «الرد علىٰ المنطقيين»[1]:

(١) ص(٩٩).

«ومن جواب هؤلاء: أن حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم، فليس من شرط حجة الله تعالىٰ علم المدعوين بها.

ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعًا من قيام حجة الله تعالىٰ عليهم، وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة عنهم لا يمنع الحجة، إذ المكنة حاصلة.

فلذلك قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ومن هذا الباب إنكار كثير من أهل البدع والكلام والفلسفة لما يعلمه أهل الحديث والسنة من الآثار النبوية والسلفية المعلومة

عندهم، بل المتواترة عندهم عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فان هؤلاء يقولون: «هذه غير معلومة لنا» كما يقول من يقول من الكفار: إن معجزات الأنبياء غير معلومة لهم. وهذا؛ لكونهم لم يطلبوا السبب الموجب للعلم بذلك، وإلا فلو سمعوا ما سمع أولئك وقرأوا الكتب المصنفة التي قرأها أولئك، تحصل لهم من العلم ما حصل لأولئك.

وعدم العلم ليس علمًا بالعدم، وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود، فهم إذا لم يعلموا ذلك لم يكن هذا علمًا منهم بعدم ذلك، ولا بعدم علم غيرهم به، بل هم كما قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾» انتهىٰ.

فقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم» بالتمكن من العلم، يعني: لا بالعلم بالفعل، ثم وضح ذلك بقوله: فليس من شرط حجة الله تعالىٰ علم المدعوين بها، يعني نقول: قامت الحجة ولو لم يعلم، ليس من شرط حجة الله تعالىٰ علم المدعوين بها، فلو سمع بمجرد إنزال الكتب وإرسال الرسول كفىٰ، ولو لم يعلم بالتفاصيل التي تضمنتها تلك الكتب، ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن السماع للقرآن وتدبره مانعًا من قيام حجة الله تعالىٰ عليهم، فهم لم يسمعوا القرآن وقامت عليهم الحجة، فمناطُ الحُكم عنده في بلوغ الحُجَّة وعدمها هو إمكانُ العلم متىٰ ما أمكنَ العلم فقد قامت الحُجَّة، قال: «وكذلك إعراضُهم عن السماع

المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة عنهم لا يمنع الحُجَّة» وأراد به الرد علىٰ المناطقة، بلغتُهم بعض الأثار عن الأنبياء ولكن لم يقرأوها، وقامت عليهم الحُجَّة ولو لم يقرأوها، إذ المُكنة حاصلة، فمتىٰ ما حصلَت فقد قامت الحُجَّة الرسالية عليهم، فأين هذا من فهم من يفهم قوله هكذا مُرسلًا: «لا يُكفَّر حتىٰ تُقام عليه الحُجَّة الرسالية» من غير قيود، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وهذا أعرض وقامت عليه الحجة فاستحق حينئذٍ العذاب في الدنيا والآخرة، فهذا نص من شيخ الاسلام رحمه الله تعالىٰ يدل علىٰ أن مناط الحكم هو إمكان العلم، فمتىٰ ما تمكن وأعرض، حينئذ لا يكون معذورًا ولا يصدق عليه أنه يعنيه بقوله حتىٰ تقوم عليه الحجة الرسالية، وقال رحمه الله في المجموع(١): «وإذا أخبر بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الآمر ونهي الناهي منها إلىٰ كل مكلف في العالم؛ إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة: فكيف يشترط فيما هو من توابعها؟ بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم. ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه».

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ١٢٥).

يعني رحمه الله أن أمر الآمر لا يُشترط في تبليغه أن يصل إلىٰ كل مأمور في العالم، وكذلك نهي الناهي لا يُشترط فيه أن يصل إلىٰ كل مكلف في العالم، بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم، ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه، وهذه الكلمات من شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ- تبين المجمل الذي يقع فيه كلامه، فثم مُحكم وثم متشابه، وهذا يعتبر من المُحكم.

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوىٰ[1]: «فالمعذور الذي يعرف أنه معذور هو من كان عاجزًا عن الفعل مع إرادته له: كالمريض العاجز عن القيام والصيام والجهاد، والفقير العاجز عن الإنفاق ونحو ذلك، وهؤلاء ليسوا مكلفين ولا معاقبين علىٰ ما تركوه، وكذلك العاجز عن السماع والفهم: كالصبي والمجنون؛ ومن لم تبلغه الدعوة، وأما من جعل محبًّا مختارًا راضيًا بفعل السيئات حتىٰ فعلها فليس مجبورًا علىٰ خلاف مراده ولا مكرهًا علىٰ ما يرضاه، فكيف يسمىٰ هذا معذورًا؟ بل ينبغي أن يسمىٰ مغرورًا» انتهىٰ.

فالقول بأن كل من لم يعلم فهو جاهل سواء أراد الحق أم لا، هذا تلبيس، بل مخاصمة للباري جل وعلا، وفيه تضليل للناس بكون هذا المشرك الذي وقع في الشرك معذورًا بالجهل لا لوم عليه.

---

(١) (٨/ ٢٠٢).

وقال -رحمه الله تعالىٰ- كما في مجموع الفتاوى[١]: «وبيان ذلك: أن ذلك الأمر الصادر عنه سواء كان قولًا أو فعلًا إذا علم أنه مخالف للكتاب والسنة بحيث يكون قولًا باطلًا أو عملًا محرمًا، فإنه يعذر في موضعين: (أحدهما): عدم تمكنه من العلم به. و(الثاني) عدم قدرته علىٰ الحق المشروع».

وقال في الجواب الصحيح[٢]: «فَأَمَّا مَنْ تَعَمَّدَ تَحْرِيفَ الْكِتَابِ لَفْظِهِ أَوْ مَعْنَاهُ، وَعَرَفَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَعَانَدَهُ فَهَذَا مُسْتَحِقٌّ لِلْعِقَابِ، وَكَذَلِكَ مَنْ فَرَّطَ فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ مُشْتَغِلًا عَنْ ذَلِكَ بِدُنْيَاهُ» انتهىٰ.

بمعنىٰ أنه لا فرق عنده بين النوعين الذي كذب الكتاب وعانده وبين من فرط في طلب الحق، فالمفرط عند شيخ الإسلام وإن كان جاهلًا فليس معذورًا، فيجب حينئذ التفريق بين الجهلين وبين الجاهلين: جاهل معرض هذا يسمىٰ معرضًا، وجاهل لو بحث وسأل لما تمكن من معرفة الحق هذا قيد عنده، فإن حجة الله قامت علىٰ العبد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وبلغ ذلك إليه.

قال ابن القيم رحمه الله: «فَإِنَّ حُجَّةَ اللَّهِ قَامَتْ عَلَىٰ الْعَبْدِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَبُلُوغِ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ، سَوَاءٌ عَلِمَ أَمْ جَهِلَ، فَكُلُّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَىٰ

---

(١) (١٠/ ٣٨٠).

(٢) (٢/ ٢٩٤).

عَنْهُ، فَقَصَّرَ عَنْهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، فَإِذَا عَاقَبَهُ عَلَىٰ ذَنْبِهِ عَاقَبَهُ بِحُجَّتِهِ عَلَىٰ ظُلْمِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وَقَالَ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩]». انتهىٰ.

فهذا نص، وليس فيه اشتباه، بل هو نص واضح بيِّن من كلام ابن القيم.

ولو تأملت واقع الناس اليوم وجدت القسمين قد وقعا في الوجود، قال رحمه الله: «فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله» نص صريح لا يحتاج إلىٰ تأويل، بل لا يحتاج إلىٰ تحريف إلا عند من في قلبه هوىٰ وفي نفسه زيغ، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه، فهو قسمان أيضًا:

العاجز عن السؤال الذي لم يرفع رأسًا واشتغل بدنياه، ولو بذل السبب لم يستطع، هذا عند ابن القيم هنا لا يكون معذورًا.

وهذا التفصيل يدل علىٰ أن الشرط ليس هو مطلق عدم إمكان العلم، بل عدم إمكان العلم مع إرادته، فالعاجز علىٰ نوعين: عاجز طالب، وعاجز معرض، وذلك أن العذاب يستحق بسببين أحدهما الإعراض عن الحجة وعدم إرادة العلم بها وبموجبها.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في الصواعق المرسلة: «وقد كثرت الرحل إلىٰ الآفاق، وتداخل الناس، وانتدب أقوام لجمع حديث النبي وضمه وتقييده، ووصل من البلاد البعيدة إلىٰ من لم يكن عنده، وقامت الحجة علىٰ من بلغه شيء منه، وجمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة في الحديث، وعرف الصحيح من السقيم وزيف الاجتهاد المؤدي إلىٰ خلاف كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلىٰ ترك عمله، وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغها إليه وقيام الحجة بها عليه، ولم يبق إلا العناد والتقليد».

هذا الكلام مفاده أن كل من وقف علىٰ كتب السنن الصحاح والمسانيد وتفاسيرها من الصحابة فمن بعدهم، فليس له عذر البتة لا في الشرك ولا في التوحيد ولا في الأسماء ولا في الصفات ولا في القدر، ولا في غيرها من أبواب الدين كلها.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في هداية الحيارىٰ[1]: «وَقَوْلُهُ: حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ بِهِ الْعُذْرُ ... وَتَثْبُتَ بِهِ الْحُجَّةُ، مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن

(١) (٢/٣٦٨).

دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

فَالْحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِالرُّسُلِ، وَبِهِمُ انْقَطَعَتِ الْمَعْذِرَةُ، فَلَا يُمْكِنُ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ يَعْتَذِرَ إِلَىٰ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ لَيْسَ لَهُ عُذْرٌ يُقْبَلُ مِنْهُ».

وقوله رحمه الله متفق مع كلام شيخه -رحمه الله تعالىٰ- إذ القاعدة هنا أن الجاهل المفرِّط الذي تمكن من العلم وتركه وأعرض عنه واشتغل بدنياه لا يُعذر، ويتبين من كلام الشيخين رحمهما الله أن التقييد بقيام الحجة هو الاحتراز عن أهل الفترة ومن في حكمهم، وليس من يكون بين المسلمين البتة، وإنما من كان يصدق عليه أنه من أهل الفترة أو أنه من لم تبلغه الدعوة.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله في الجواب الصحيح(١): «وَمَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فِي الدُّنْيَا بِالرِّسَالَةِ كَالْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينِ وَأَهْلِ الْفَتَرَاتِ، فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ أَقْوَالٌ أَظْهَرُهَا مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَنْ يَأْمُرُهُمْ بِطَاعَتِهِ، فَإِنْ أَطَاعُوهُ اسْتَحَقُّوا الثَّوَابَ وَإِنْ عَصَوْهُ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ». انتهىٰ.

وقال ابن القيم رحمه الله في طريق الهجرتين(٢): «وهذا يدل علىٰ أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

---

(١) (٢/٢٩٨).

(٢) ص(٤١٣).

نعم لا بد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا: أحدهما مريد للهدىٰ مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا علىٰ طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة. الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوىٰ ما أنا عليه ولا أقدر علىٰ غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي. والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول؛ لما بينهما من الفرق: فالأَول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلًا، والثاني كمن لم يطلبه، بل مات في شركه وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع» انتهىٰ.

فإذًا الشيخ يفرق بين عاجز وعاجز، فالعاجز عن العلم علىٰ نوعين: عاجز عن العلم لو بذل السبب لم يستطع، وهم قسمان أيضًا: أحدهما: مريد للهدىٰ مؤثر له محب له غير قادر عليه،

ولا علىٰ طلبه لعدم من يرشده فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. قال: وهذا لا يجب أن يلحق بالأول، أي لا يكون معذورًا، لما بينهما من الفرق ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض، إذا العجز عجزان: عجز مُعرض وعجز طالب.

وتصديق ما مضىٰ من تقرير الشيخين حديث الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رضي الله عنه: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»[1].



(١) تقدَّم تخريجه ص٢٥.

فصلٌ

«قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، يعني القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمِّيٌّ لا يُحسن الكتابة، ولم يُدارِس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأوَّلين، بما كان منهم في سالف الدُّهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدِّمة الصَّحيحة منها، فإنَّ القرآن مهيمِنٌ عليها، يصدِّق الصَّحيح ويبيِّن خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، وفي الصَّحيحين عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١]، وإنَّما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أُعطيَها ﷺ، وهو القرآن، وإلَّا فله مِن المعجزات ما لا يُحدُّ ولا يُحصَر، كما هو مودَعٌ في كتبه، ومقرَّرٌ في مواضعه»[٢].

(١) تقدم تخريجه ص٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير، (٥/ ٣٢٩).

وقال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيِّنة: ١].

«أي الآية التي هي في البيان كالفجر المنير، الذي لا يزداد بالتَّمادي إلَّا ظهورًا وضياءً ونورًا، وذلك هو الرسول وما معه مِن الآيات؛ التي أعظمها الكتاب، سواءٌ كان التَّوراة أو الإنجيل أو الزَّبور أو الفرقان، ولذلك أبدل منها قوله: ﴿رَسُولٌ﴾ أي: عظيمٌ جدًّا، وزاد عظمته بقوله واصفًا له: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي له الجلال والإكرام، ﴿يَتْلُوا۟﴾ أي: يقرأ قراءةً متواترةً ذلك الرَّسول، بعد تعليمنا له ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفةٍ، وهي القِرطاس، والمراد ما فيها، عبَّر بها عنه لشدَّة المواصلة، ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ أي: هي في غاية الطَّهارة والنَّظافة والنَّزاهة مِن كلِّ قذرٍ، بما جعلنا لها مِن البُعد مِن الأدناس؛ بأنَّ الباطل مِن الشِّرك بالأوثان وغيرها مِن كلِّ زيغٍ، لا يأتيها مِن بين يديها ولا مِن خلفها، وأنَّها لا يمسُّها إلَّا المطهَّرون، وقراءته -وإن كان أمِّيًّا- لمثل ما فيها قراءةٌ لها»(١).

وبيَّن سبحانه أنَّ الخلق انقسموا بعد نزول القرآن إلىٰ هالكٍ وناجٍ، فقال تعالىٰ: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

«أي: يستمرُّ في الكفر مَن استمرَّ فيه، علىٰ بصيرةٍ مِن أمره، إنَّه مبطلٌ لقيام الحجَّة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ﴾ [الأنفال: ٤٢]، أي: يؤمن

---

(١) نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور، للبقاعيِّ، (٢٢/ ١٨٨).

مَن آمن ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، أي: حُجَّةٍ وبصيرةٍ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [التَّوبة: ١١٥].

«فهذا الإضلال عقوبةٌ منه لهم، حين بيَّن لهم فلم يقبلوا ما بيَّنه لهم، ولم يعملوا، فعاقبهم بأن أضلَّهم عن الهدىٰ، وما أضلَّ الله سبحانه أحدًا قطُّ إلَّا مِن بعد هذا البيان، وإذا عرفتَ هذا عرفتَ سِرَّ القدر، وزالت عنك شكوكٌ كثيرةٌ وشبُهاتٌ في هذا الباب، وعلمتَ حِكمة الله في إضلاله مَن يضلُّه مِن عباده، والقرآن يصرِّح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّفّ: ٥]، ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النِّساء: ١٥٥]، فالأوَّل: كفر عِنادٍ، والثَّاني: كفر طبعٍ، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فعاقبهم علىٰ ترك الإيمان به حين تيقَّنوه وتحقَّقوه، بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا به، فتأمَّل هذا الموضع حقَّ التَّأمُّل، فإنَّه موضعٌ عظيمٌ»(٢).

ولهذا قال ﷺ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»(٣)، وهو تفسيرٌ لقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَهۡلِكَ

---

(١) تفسير ابن كثيرٍ، (٤/ ٦٩).

(٢) تفسير القرآن الكريم، لابن القيِّم، (ص: ٤٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه سنن ابن ماجه برقم: (٤٣)، وأحمد في مسنده، برقم: (١٧١٤٢)، بإسنادٍ حسنٍ.

﴿مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

فجعلهم بعد بعثة النَّبيِّ ﷺ ونزول القرآن قِسمين لا ثالث لهما، فقال ﷻ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾

وتقدَّم قول رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).



(١) تقدَّم تخريجه ص٢٠.

فصلٌ

قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

وفيها الإشارة إلىٰ ما رواه الشَّيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا «وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ»(١).

فلا يُقبل عُذر مَن بلغته الرِّسالة وهو مكلَّفٌ، ولهذا لم يرِد أنَّ الله يقبل العُذر، إلَّا فيما دُون الشِّرك، كما روىٰ الشَّيخان عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النَّجْوَىٰ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٧٤١٦)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (١٤٩٩).

هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفارَ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فمَن أراد النُّصح للأمَّة مِن أهل العِلم لمَن وقع منهم في الشِّرك الأكبر فليواجههم بالحقيقة، وأنَّهم إذا ماتوا علىٰ ذلك فمآلهم إلىٰ النَّار، وليدَعْ عنه الاعتذار بما لا يقبله الله، ولم يرد في الكتاب والسُّنَّة أنَّ الله يعذر مَن عبد غيره عالمًا أو جاهلًا، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «تفسير القرآن علىٰ أربعة أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العرب مِن كلامها، وتفسيرٌ لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمه إلَّا الله تعالىٰ ذِكره»(٢)، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنَّ النَّاس كلمَّا قويت حاجتهم إلىٰ معرفة الشَّيء يسَّر الله أسبابه، كما يتيسَّر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشدّ، فلمَّا كانت حاجتهم إلىٰ النَّفس والهواء أعظَم منها إلىٰ الماء، كان مبذولًا لكلِّ أحدٍ في كلِّ وقتٍ، ولمَّا كانت حاجتهم إلىٰ الماء أكثر مِن حاجتهم إلىٰ القُوت، كان وجود الماء أكثر، وكذلك لمَّا كانت حاجتهم إلىٰ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٢٤٤١)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٧٦٨).

(٢) تقدَّم تخريجه ص٤٠.

معرفة الخالِق أعظم، كانت آياته ودلائل ربوبيَّته وقُدرته وعِلمه ومشيئته وحِكمته أعظم مِن غيرها، ولمَّا كانت حاجتهم إلىٰ معرفة صِدق الرُّسل بعد ذلك أعظم مِن حاجتهم إلىٰ غير ذلك، أقام الله -سبحانه- مِن دلائل صِدقهم وشواهد نبوَّتهم وحُسن حال مَن اتَّبعهم وسعادته ونجاته، وبيان ما يحصل له مِن العِلم النَّافع والعمل الصَّالح، وقُبح حال مَن خالفهم -وشقاوته وجهله وظلمه- ما يظهر لمن تدبَّر ذلك، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠]»[١]، وفي الصَّحيحين عَنْ أَنَسٍ يَرْفَعُهُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»[٢]، وفيهما عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه مرفوعًا، «قَالَ: ذَاكَ جِبْرِيلُ عَرَضَ لِي فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ، فَقَالَ: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَىٰ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَىٰ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَىٰ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ»[٣]، فانظر كيف فرَّق بين الشِّرك وبقيَّة الذُّنوب.

---

(١) الجواب الصَّحيح لمَن بدَّل دِين المسيح، لابن تيمية، (٥/ ١٤١).

(٢) أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم (٣٣٣٤)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٨٠٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم (٦٤٤٣)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٩٤).

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «والسُّوءُ: الشِّرْكُ»(١).



(١) أورده الطَّبريُّ في تفسيره، (١٠/١٩٧).

فصلٌ

قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزُّمر: ٥٦-٥٨].

وفيها مِن العِلم:

«وحاصل الكلام أنَّ هذا المقصِّر أتىٰ بثلاثة أشياءٍ:

أوَّلها: الحسرة علىٰ التَّفريط في الطَّاعة.

وثانيها: التَّعلُّل بفقد الهداية.

وثالثها: بتمنِّي الرَّجعة.

ثمَّ أجاب الله تعالىٰ عن كلامهم، بأن قال التعلُّل بفقد الهداية باطلٌ، لأنَّ الهداية كانت حاضرةً والأعذار زائلةٌ»[١].

ويدخل في الآيات عامَّة المشركين؛ مِن اليهود والنَّصارىٰ والوثنيِّين، والمشركين مِن هذه الأمَّة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقال

(١) التَّفسير الكبير، للفخر الرَّازيِّ، (٢٧/ ٤٦٧).

تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فالجميع علىٰ ضلالٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١]، وقال تعالىٰ ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]، وقال تعالىٰ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

فمَن قال إنَّ عُبَّاد القبور ليسوا علىٰ ضلالٍ فهو مكذِّبٌ لله، أو قال إنَّهم تحت المشيئة فهو مكذِّبٌ لله، أو قال نفوِّض أمرهم إلىٰ الله، فهو لم يحقِّق التَّوحيد؛ ملَّة إبراهيم عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا

حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمُّنه له، ويظنُّونه في نوعٍ وفي قومٍ قد خلوا مِن قبل، ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعَمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم مَن هو مثلهم، أو شرٌّ منهم، أو دُونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكنَّ الأمر كما قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّما تُنقض عُرىٰ الإسلام عُروةً عُروةً، إذا نشأ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهليَّة»(١)، وهذا لأنَّه إذا لم يعرف الجاهليَّة والشِّرك وما عابه القرآن وذمَّه: وقع فيه وأقرَّه، ودعا إليه وصوَّبه وحسَّنه، وهو لا يعرف أنَّه هو الذي كان عليه أهل الجاهليَّة، أو نظيره، أو شرٌّ منه، أو دُونه، فينقض بذلك عُرىٰ الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا والمنكر معروفًا،

---

(١) لم نقف عليه بهذا التَّمام مِن قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أمَّا ما وقفنا عليه مِن قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه برقم: (٣٢٤٧٢)، والحاكم في مستدركه برقم: (٨٣١٨)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان برقم: (٧١١٩)، وغيرهم -بإسنادٍ حسنٍ- ولفظه: عَنِ الْمُسْتَظِلِّ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ مَتَىٰ تَهْلِكُ الْعَرَبُ»، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: مَتَىٰ يَهْلِكُونَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «حِينَ يَسُوسُ أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يُعَالِجْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمْ يَصْحَبِ الرَّسُولَ ﷺ»، وأما شَطر الحديث الأوَّل فقد جاء مرفوعًا.

والبدعة سنَّةً والسُّنَّة بدعةً»[١].

والعجيب أنَّ أهل السُّنَّة اختلفوا في الشِّرك الأصغر: هل هو تحت المشيَّة، أم داخلٌ في عموم الآية، والذي مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّه لا يدخل تحت المشيَّة، فما بالنا نختلف فيما اتَّفقت الأمَّة أنَّه لا يدخل تحت المشيئة؟ وهو الشِّرك الأكبر! ونجعل المتشابه مِن أدلَّة القائلين بالعُذر بالجهل معارضةٌ للمحكَم مِن كتاب الله!

والأعجب مِن ذلك أنَّ مِن النَّاس مَن يقع في الشِّرك، وهو أخفىٰ مِن دبيب النَّمل؛ فلا يعذر، ثمَّ يعذر الواقع في الشِّرك الأكبر، قاصدًا له ومريدًا له، ثمَّ يُقال: أمره في الآخرة إلىٰ الله، ولعلَّ ذلك داخلٌ في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

فهل يوجد في القرآن والسُّنَّة وآثار السَّلف الصَّالح أنَّ مَن عبد غير الله يُعذر بجهله، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(١) مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، لابن القيِّم، (١/ ٣٤٤).

ﵟٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَﵞ [النَّحل: ٢٧]، فقوله تعالىٰ: ﵟقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَﵞ [النَّحل: ٢٧] صريحٌ أنَّ الجهل ذنبٌ، وليس عذرًا تُرفع به المؤاخذة، ويجب أن يعلم أنَّه لا يمكن لأحدٍ أن يصدَّ أحدًا عن التَّوحيد، لأنَّ التَّوحيد عملٌ قلبيٌّ، قال تعالىٰ في ذِكره لتخاصُم المشركين وهم في النَّار: ﵟقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَﵞ [سبأ: ٣٢].

ثمَّ إنَّ الله جل جلاله بيَّن أنَّ أعظم حُجج المشركين في عبادتهم غير الله: زعمهم التَّقرُّب إلىٰ الله، وذلك مِن لدن قوم نوحٍ عليه السلام إلىٰ يومنا هذا، وقال تعالىٰ: ﵟوَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَﵞ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالىٰ: ﵟوَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَﵞ [النَّحل: ٩٣].



فصلٌ

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وفيها مِن العِلم: في الآية الأُولىٰ، قال ابن القيِّم رحمه الله: «أخبر سبحانه أنَّه قطع عنهم مادَّة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحلِّ، فإنَّه لا خير فيه، فإنَّ الرَّجل إنَّما ينقاد للحقِّ بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطَّلب له، ومحبَّته، والحِرص عليه، والفرح بالظَّفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيءٌ مِن ذلك، فوصل الهدىٰ إليها، ووقع عليها، كما يصل الغيث النَّازل مِن السَّماء ويقع علىٰ الأرض الغليظة العالية، والتي لا تُمسك ماءً، ولا تُنبت كلًأ، فلا هي قابلةٌ للماء ولا للنَّبات، فالماء في نفسه رحمةٌ وحياةٌ، ولكن ليس فيها قبولٌ له، ثمَّ أكَّد الله هذا المعنىٰ في حقِّهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فأخبر أنَّ فيهم -مع عدم القبول والفهم- آفةً أخرىٰ، وهي: الكِبر والإعراض وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتَّبعوا الحقَّ، ولم يعملوا به،

فالهدىٰ في حقِّ هؤلاء هدىٰ بيانٍ وإقامة حجَّةٍ، لا هدىٰ توفيقٍ وإرشادٍ، فلم يتَّصل الهدىٰ في حقِّهم بالرَّحمة»(١).

وفي الآية الثَّانية قال ابن كثيرٍ رحمه الله: يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: خلقنا وجعلنا لجهنَّم ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أي: هيَّأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنَّه تعالىٰ لمَّا أراد أن يخلق الخلْق علِم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتابٍ قبل أن يخلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنةٍ، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ»(٢)، وفي صحيح مسلمٍ أيضًا: مِن حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّها قالت: دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ جِنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَىٰ لَهُ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ؟ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ النَّارَ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»(٣)، وفي الصَّحيحين: مِن حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «ثُمَّ يَبْعَثُ

---

(١) إغاثة اللَّهفان مِن مصايد الشَّيطان، لابن القيِّم، (٢/ ١٧٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٦٥٣)، بلفظ: «وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ».

(٣) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٦٦٢).

إِلَيْهِ الْمَلَكَ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ»(١)، ولمَّا استخرج الله ذرِّيَّة آدم مِن صُلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشِّمال، قال: «هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي»(٢)»(٣).

قلتُ: وفي الصَّحيحين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تبارك وتعالىٰ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لَا تُشْرِكَ -أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ- فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»(٤).

فالعِبرة بما مات عليه الإنسان مِن عقيدةٍ، وأمَّا قول مَن يقول: لو فهِم الحجَّة، أو بشرط أن يبلغه الإسلام غير مشوَّهٍ، ونحو ذلك، فهذا كلُّه مِن طرْق الفلاسفة، بل مِن المشاقَّة لله عز وجل ورسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

---

(١) متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٧٤٥٤)، ومسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (١٧٦٦٠)، والبزَّار في مسنده برقم: (٤١٤٣)، بإسناد حسنٍ، وابن حبَّان في صحيحه برقم: (٣٣٨)، والحاكم في المستدرَك علىٰ الصَّحيحين برقم: (٨٨)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٣) تفسير ابن كثيرٍ، (٣/ ٥١٣).

(٤) تقدَّم تخريجه ص٧٥.

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لو كانت لنا عقولٌ ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله مِن الحقِّ، لما كنَّا علىٰ ما كنَّا عليه مِن الكُفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعي به ما جاءت به الرُّسل، ولا كان لنا عقلٌ يرشدنا إلىٰ اتِّباعهم، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثنا محمَّد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن عمرو بن مرَّة، عن أبي البَختريِّ الطَّائيِّ قال: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّىٰ يُعذِروا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»(١)، وفي حديثٍ آخر: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ النَّارَ، إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ أَوْلَىٰ بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ»(٢)»(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السَّجدة: ١٣].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال محمَّد بن كعبٍ القُرظِيُّ: لمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة: ١٢]، ردَّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (١٨٢٨٩)، بإسنادٍ صحيحٍ.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ في المصنَّفات الحديثيَّة، ولعلَّ في معناه ما أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٦٥٦٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً».

(٣) تفسير ابن كثيرٍ، (٨/ ١٧٨).

عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السَّجدة: ١٣]، يقول: لو شئتُ لهديتُ النَّاس جميعًا، فلم يختلف منهم أحدٌ ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجدة: ١٣]»(١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله موقف السَّلف في مسألة الوجوب علىٰ الله، فقال: «وأمَّا الإيجاب عليه سبحانه وتعالى، والتَّحريم بالقياس علىٰ خَلقه، فهذا قول القدريَّة -أي المعتزِلة- وهو قولٌ مبتدعٌ مخالفٌ لصحيح المنقول وصريح المعقول، وأهل السُّنَّة متَّفقون علىٰ أنَّه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ العباد لا يوجبون عليه شيئًا.

ولهذا كان مَن قال مِن أهل السُّنَّة بالوجوب قال: إنَّه كتب علىٰ نفسه الرَّحمة، وحرَّم الظُّلم علىٰ نفسه، لا أنَّ العبد نفسه مستحقٌّ علىٰ الله شيئًا، كما يكون للمخلوق علىٰ المخلوق، فإنَّ الله هو المنعِم علىٰ العباد بكلِّ خيرٍ فهو الخالق لهم، وهو المرسِل إليهم الرُّسل، وهو الميسِّر لهم الإيمان والعمل الصَّالح»(٢).

عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ لَهُ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي،

(١) تفسير القرطبيِّ، (١٤/ ٩٦).
(٢) اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، (٢/ ٣١١).

قَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ»(١).

قلتُ: وهذه هي حقيقة التَّوحيد لمَن فتح الله علىٰ بصيرته، كما قال عيسىٰ عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].



(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٤٦٩٩)، وابن ماجه في سننه برقم: (٧٧)، وأحمد في مسنده برقم: (٢١٥٨٩).

فصلٌ

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

وفيها مِن العلم: الإشارة إلىٰ قول رسول الله ﷺ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[(١)].

وتفسير الآية: «ومعنىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ [التوبة: ١١٥]، أنْ ليس مِن شأنه وعادة جلاله أن يكتب الضَّلال لقومٍ بعد إذ هداهم؛ بإرسال الرُّسل إليهم، وإرشادهم إلىٰ الحقِّ، حتَّىٰ يبيِّن لهم الأشياء التي يريد منهم أن يتَّقوها، أي يتجنَّبوها، فهنالك يبلِّغ رسله أنَّ أولئك مِن أهل الضَّلال»[(٢)].

قال ابن القيِّم ﷺ: «المرتبة السَّادسة: مرتبة البيان العامِّ، وهو تبيينُ الحقِّ وتمييزُه مِن الباطل بأدلَّته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب كشهود العين للمرئيَّات، وهذه المرتبة هي حجَّة الله علىٰ خلقه، التي لا يعذِّب أحدًا ولا يُضِلُّه إلَّا بعد وصوله إليها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهذا الإضلالُ عقوبةٌ منه لهم، حين بيَّن

---

(١) تقدَّم تخريجه ص٧٢.

(٢) التَّحرير والتَّنوير، لابن عاشور، (١١/ ٤٧).

لهم، فلم يقبلوا ما بيَّنه، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلَّهم عن الهُدىٰ، وما أضلَّ الله سبحانه أحدًا قطُّ إلَّا بعد هذا البيان، وإذا عرفتَ هذا عرفتَ سرَّ القدَر، وزالتْ عنكَ شكوكٌ كثيرةٌ وشبُهاتٌ في هذا الباب، وعلمتَ حكمةَ الله في إضلاله مَن يضلُّه مِن عباده، والقرآن يصرِّح بهذا في غير موضعٍ»[1].

قلتُ: فيُقال لمَن يعذرهم في شِركهم بالجهل: هل تعتقد أنَّهم علىٰ هدىٰ أم ضلالٍ؟ فإنْ قال علىٰ هدىٰ كفر بالله، لأنَّه صحَّح دِين المشركين، وإن قال علىٰ ضلالٍ، قلنا: إنَّ الله وصف النَّصارىٰ بالضَّلال مع جهلهم، قال الشَّنقيطيُّ ﷺ: «وقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال جماهيرٌ مِن عُلماء التَّفسير ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: اليهود، ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: النَّصارىٰ، وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ، مِن حديث عديِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه[2]، واليهود والنَّصارىٰ وإن كانوا ضالِّين جميعًا، مغضوبًا عليهم جميعًا، فإنَّ الغضب إنَّما خُصَّ به اليهود، وإن شاركهم النَّصارىٰ فيه، لأنَّهم يعرفون الحقَّ وينكرونه، ويأتون الباطل عمدًا، فكان الغضب أخصَّ

---

(١) مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، لابن القيِّم، (١/ ٦٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم: (١٩٣٨١)، بإسنادٍ صحيحٍ، ونصُّه: «يا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ! مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ؟! مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ ﷻ؟!» قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ، وَقَالَ: «إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَىٰ».

صِفاتهم، والنَّصارىٰ جهلَةٌ لا يعرفون الحقَّ، فكان الضَّلال أخصَّ صفاتهم»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦].

قلتُ: فإذا استحقُّوا وَصف الضَّلال فلا يُعذرون بالجهل حينئذٍ، بل هم داخلون قطعًا في قوله تعالىٰ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التَّوبة: ١١٥]، فحُجج الله قائمةٌ عليهم، مِن إنزال الكتب وإرسال الرُّسل، كما قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦] أي: جاهلين، فقطع الله حجَّتهم بإنزال الكتاب، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، فما هو جوابهم حين يُقال لهم ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [غافر: ٧٣]، سيقولون: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشَّنقيطيِّ، (١/ ٩).

فصلٌ

قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

وفيها مِن العِلم: بيان انقطاع حجّة مَن أشرك في عبادة الله بعد نزول القرآن وبعثة النّبيّ ﷺ، قال ﷺ: «لَيْس أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ ﷻ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْس أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَلَيْس أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ»(١).

وقال ﷺ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»(٢).

وبيّن ﷺ أنه لا يُعذر إلّا أربعةٌ، فقال: «أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٧٦٠).

(٢) تقدّم تخريجه ص٧٢.

يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا، لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»(١).

ولا يُعرف في آيةٍ أو حديثٍ أنَّ الله عذر مَن عبدَ غيرَه بجهلِه، بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ عدَّ الجهل ذنبًا، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي، وَجَهْلِي وَهَزْلِي»(٢).

ورویٰ الشَّيخان عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي» أَوْ قَالَ: «بَشَّرَنِي أَنَّهُ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ»(٣)، وهو صريحٌ بأنَّ الشِّرك يمنع دخول الجنَّة، ولو كان صاحبه يقول (لا إله إلَّا الله)، وأنَّ الآيات التي في القرآن في الشِّرك والمشركين عامَّةٌ في كلِّ مَن أشرك في عبادة غير الله، سواءٌ كان مِن أهل التَّوراة أو الإنجيل أو القرآن، قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ

(١) تقدَّم تخريجه ص٢٥.

(٢) **متَّفقٌ عليه**: أخرجه البخاريُّ في صحيحه برقم: (٦٣٩٨-٦٣٩٩)، وأخرجه مسلمٌ في صحيحه برقم: (٢٧١٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٢٣٧)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٩٩).

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النِّساء: ١٢٣]، وقال عن الذين اختارهم علىٰ عِلم علىٰ العالَمين: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] مع اعتذارهم وقولهم ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٧].

فكلُّ ذنبٍ يغفره الله، إلَّا الشِّرك، ولو كان فاعله أبًا لنبيٍّ، أو ابنًا له، أو عمًّا له، أو زوجًا له، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ٤٨]، وهذه الآية محكمةٌ بالإجماع.



فصلٌ

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وفي الآية التَّنبيه إلىٰ أنَّ وقوع النَّاس في الشِّرك هو مِن استجابتهم للشَّيطان، ولا يجوز الاعتذار لهم بالجهل، فإنَّ في ذلك منازعةً لله فيما أخبر.

وفي الحديث القدسيِّ: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

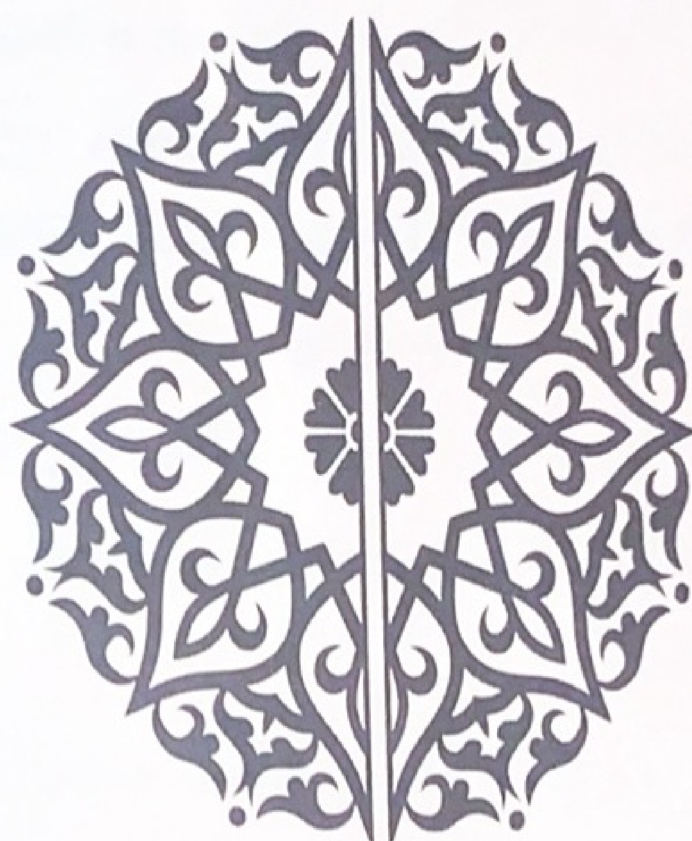
(١) تقدَّم تخريجه ص١٣.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وقال تعالىٰ: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].





ختامًا

أقول: إنَّ مَن قال إنَّ القرآن ليس حجَّةً على الخَلق في العصور المتأخِّرة وعصرنا هذا فهو مكذِّبٌ لله كافرٌ به، وكذا مَن قال إنَّ عباد الأوثان مِن أتباع ملالي الرَّافضة وغلاة الصُّوفيَّة موحِّدون، ولا تضرُّهم عبادة غير الله؛ إذا كانوا ينطقون بالشَّهادتين، وأنَّهم يموتون على التَّوحيد، لأنَّهم معذورون بالجهل، فهو على خطرٍ عظيم، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تبارك تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، وأذكر أنَّ الله

تبارك وتعالىٰ قدَّر مقادير الخَلق قبل أن يخلُق الخلق، وعلم أنَّ قومًا صائرون إلىٰ الشَّقاء وقومًا صائرون إلىٰ السَّعادة، فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير، وأقام الحجَّة علىٰ الجميع ببعْث الرُّسل وتأييدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحقّ لبْسًا، فقامت عليهم حجَّة اللهِ في أرضه بذلك.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلُّ ما يحتاج النَّاس إلىٰ معرفته واعتقاده والتَّصديق به مِن هذه المسائل فقد بيَّنه الله ورسوله بيانًا شافيًا، قاطعًا للعُذر، إذ هذا مِن أعظم ما بلَّغه الرَّسول البلاغَ المبين، وبيَّنه للنَّاس، وهو مِن أعظم ما أقام الله الحجَّة علىٰ عباده فيه بالرُّسل الذين بيَّنوه وبلَّغوه، وكتاب الله الذي نقل الصَّحابة ثمَّ التَّابعون عن الرَّسول لفظه ومعانيه، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ، التي نقلوها أيضًا عن الرَّسول، مشتملةً مِن ذلك علىٰ غاية المراد وتمام الواجب والمستحَّب، والحمد لله الذي بعث فينا رسولًا مِن أنفسنا، يتلو علينا آياته ويزكِّينا ويعلِّمنا الكتاب تفصيلًا لكلِّ شيءٍ، وهدىٰ ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنَّما يظنُّ عدم اشتمال الكتاب والحكمة علىٰ بيانه مَن كان ناقصًا في عقله وسمعه، ومَن له نصيبٌ مِن قول أهل النَّار، الذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]»(١).

(١) ينظر: درء تعارض العقل مع النَّقل، لابن تيمية، (١/ ٢٧).

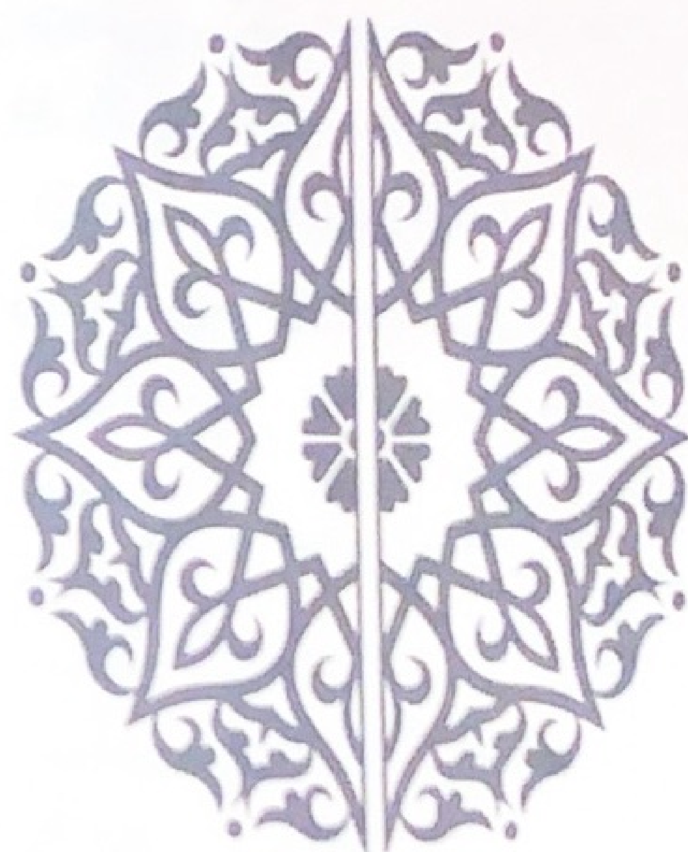
ثمَّ إنَّه تعالىٰ وفَّق مَن شاء توفيقه، ولم يوفِّق مَن سبق لهم في عِلمه الشَّقاء الأزليَّ، وخلق لكلِّ واحدٍ منهم قدرةً وإرادةً، يقدر بها علىٰ تحصيل الخير والشَّرِّ، وصرف قدرتهم وإراداتهم بقدرته وإرادته؛ إلىٰ ما سبق لهم في علمه مِن أعمال الخير المستوجبة للسَّعادة، وأعمال الشَّرِّ المستوجبة للشَّقاء، فأتوْا كلَّ ما أتوْا، وفعلوا كلَّ ما فعلوا، طائعين مختارين، غير مجبورين ولا مقهورين: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وبالله التَّوفيق، والحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه

عبدالله بن صالح العبيلان

١/ ٥/ ١٤٣٤هـ



ثَبت المصادر والمراجع

١- آثار الشَّيخ العلَّامة عبد الرَّحمن بن يحيي المُعَلِّميُّ اليمانيُّ، اعتنىٰ به: مجموعةٌ مِن الباحثين؛ منهم: المدير العلميُّ للمشروع عليُّ بن محمَّد العِمران، دار عالم الفوائد للنَّشر والتَّوزيع، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٣٤هـ.

٢- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان، محمَّد بن حبَّان الدَّارميُّ البُستيُّ، ترتيب: الأمير علاء الدِّين عليُّ بن بلبان الفارسيُّ، حقَّقه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣- أحكام أهل الذِّمَّة، محمَّد بن أبي بكرٍ بن أيُّوب بن سعدٍ شمس الدِّين ابن قيِّم الجوزيَّة، المحقِّق: يوسف بن أحمد البكريُّ، شاكر بن توفيق العاروريُّ، رماديُّ للنَّشر، الدَّمَّام، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤- الاستغاثة في الرَّدِّ علىٰ البكريِّ، تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّانيُّ الحنبليُّ الدِّمشقيُّ، دراسة وتحقيق: عبد الله بن دجين السَّهليُّ، أصل الكتاب: رسالة ماجستير في قسم الثَّقافة الإسلاميَّة بكلِّيَّة التَّربية بجامعة الملك سعود، مكتبة دار المنهاج للنَّشر والتَّوزيع، الرياض، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.

٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمَّد الأمين بن محمَّد المختار الجكنيُّ الشَّنقيطيُّ، دار عطاءات العلم، الرِّياض، الطَّبعة: الخامسة، ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.

٦- إغاثة اللَّهفان من مصايد الشَّيطان، محمَّد بن أبي بكرٍ بن أيُّوب بن سعدٍ شمس الدِّين ابن قيِّم الجوزيَّة، المحقِّق: محمَّد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرِّياض.

٧- ترتيب الأمالي الخميسيَّة للشَّجريّ، يحيىٰ المرشد بالله بن الحسين الموفَّق بن إسماعيل بن زيدِ الحسنيُّ الشَّجريُّ الجرجانيُّ، رتَّبها: القاضي محيي الدِّين محمَّد بن أحمد القرشيُّ العبشميُّ، تحقيق: محمَّد حسن محمَّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٨- تفسير الطَّبريِّ = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمَّد بن جريرٍ أبو جعفر الطَّبريُّ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التُّركيُّ، بالتَّعاون مع مركز البحوث والدِّراسات الإسلاميَّة بدار هجر: عبد السَّند حسن يمامة، دار هجر للطَّباعة والنَّشر والتَّوزيع والإعلان، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٢هـ/ ٢٠٠١م.

٩- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، عبد الرَّحمن بن محمَّد بن إدريس التَّميميُّ الرَّازيُّ، المحقِّق: أسعد محمَّد الطَّيِّب، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، الطَّبعة: الثَّالثة، ١٤١٩هـ.

١٠- تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميريُّ اليمانيُّ الصَّنعانيُّ، دراسة وتحقيق: محمود محمَّد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤١٩هـ.

١١- الجامع المسند الصَّحيح المختصر مِن أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه = صحيح البخاريِّ، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل البخاريُّ الجعفيُّ، المحقِّق: محمَّد زهير النَّاصر، دار طوق النَّجاة، مصوَّرة عن السُّلطانيَّة بإضافة ترقيم محمَّد فؤاد عبد الباقي، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

١٢- جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البَرِّ بن عاصمٍ النَّمريُّ القرطبيُّ، تحقيق: أبي الأشبال الزُّهيريُّ، دار ابن الجوزيِّ، المملكة العربيَّة السُّعودية، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٣- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبيِّ، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن أبي بكرٍ بن فرحٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ شمس الدِّين القرطبيُّ، تحقيق: أحمد البردونيُّ، إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، الطَّبعة: الثَّانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٤- الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دِين المسيح، تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّانيُّ الحنبليُّ الدِّمشقيُّ، تحقيق: عليُّ بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمَّد، دار العاصمة، المملكة العربيَّة السُّعودية، الطَّبعة: الثَّانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٥- درء تعارض العقل والنَّقل، تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّانيُّ الحنبليُّ الدِّمشقيُّ، تحقيق: محمَّد رشاد سالم، جامعة الإمام محمَّد بن سعود، المملكة العربيَّة السُّعودية، الطَّبعة: الثَّانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٦- الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة، علماء نجد الأعلام، المحقِّق: عبد الرَّحمن بن محمَّد بن قاسم، الطَّبعة: السَّادسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٧- سنن التِّرمذيِّ، أبو عيسىٰ محمَّد بن عيسىٰ بن سَوْرة التِّرمذيُّ، تحقيق وتعليق: أحمد محمَّد شاكر (جـ ١-٢)، ومحمَّد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ ٤-٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابيُّ الحلبيُّ، مصر، الطَّبعة: الثَّانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٨- شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية - مِن أوَّل كتاب الصَّلاة إلىٰ آخر باب آداب المشي إلىٰ الصَّلاة، تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّانيُّ الحنبليُّ الدِّمشقيُّ، المحقِّق: خالد بن علي بن محمَّد المشيقح، دار العاصمة، الرياض، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٩- شرح مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمَّد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزديُّ الحجريُّ المصريُّ المعروف بالطحاويِّ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤١٥هـ/ ١٤٩٤م.

٢٠- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن عليِّ بن موسىٰ الخُسْرَوْجِرديُّ الخراسانيُّ أبو بكرٍ البيهقيُّ، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: عبد العليِّ عبد الحميد حامد، أشرف علىٰ تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد النَّدويُّ، مكتبة الرُّشد للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، بالتَّعاون مع الدَّار السَّلفيَّة ببومباي بالهند، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢١- صحيح وضعيف سنن التِّرمذيِّ، محمَّد ناصر الدِّين الألبانيُّ، مكتبة المعارف للنَّشر والتَّوزيع.

٢٢- الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية، تقي الدِّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرَّانيُّ الحنبليُّ الدِّمشقيُّ، دار الكتب العلميَّة، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢٣- فتاوىٰ ومسائل (مطبوعٌ ضمن مؤلَّفات الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب، الجزء الرَّابع)، محمَّد بن عبد الوهَّاب بن سليمان التَّميميُّ النَّجديُّ، المحقِّق: صالح بن عبد الرَّحمن الأطرم، محمَّد بن عبد الرَّزَّاق الدُّويش، جامعة الإمام محمَّد بن سعود، الرِّياض.

٢٤- الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حزمٍ الأندلسيُّ القرطبيُّ الظَّاهريُّ، مكتبة الخانجيِّ، القاهرة.

٢٥- الفقيه والمتفقِّه، أبو بكرٍ أحمد بن عليِّ بن ثابت بن أحمد بن مهديٍّ الخطيب البغداديُّ، المحقِّق: عادل بن يوسف الغرازيُّ، دار ابن الجوزيِّ، المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، الطَّبعة: الثَّانية، ١٤٢١ه.

٢٦- كتاب التَّوحيد، أبو بكر محمَّد بن إسحاق بن خزيمة، المحقِّق: سمير بن أمين الزُّهيريُّ، دار المغني، الرِّياض، الطَّبعة: الثَّانية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٧- الكتاب المصنَّف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، المحقِّق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرُّشد، الرِّياض، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٠٩هـ.

٢٨- كتاب تفسير القرآن، أبو بكرٍ محمَّد بن إبراهيم بن المنذر النَّيسابوريُّ، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التُّركيُّ، حقَّقه وعلَّق عليه: سعد بن محمَّد السَّعد، دار المآثر، المدينة النَّبويَّة، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٩- لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن عليِّ بن محمَّد بن أحمد بن حجر العسقلانيُّ، المحقِّق: عبد الفتاح أبو غدَّة، دار البشائر الإسلاميَّة، الطَّبعة: الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

٣٠- المختلطين، صلاح الدِّين أبو سعيد خليل بن كيكلديّ بن عبد الله الدِّمشقيّ العلائيّ، المحقِّق: رفعت فوزيّ عبد المطَّلب، عليّ عبد الباسط مزيد، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٣١- مدارج السَّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، محمَّد بن أبي بكرٍ بن أيُّوب بن سعدٍ شمس الدِّين ابن قيِّم الجوزيَّة، المحقِّق: محمَّد المعتصم بالله البغداديُّ، دار الكتاب العربيِّ، بيروت، الطَّبعة: الثَّالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣٢- مسند أبي يعلىٰ، أبو يعلىٰ أحمد بن عليِّ بن المثُنَّىٰ التَّميميُّ الموصليُّ، المحقِّق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتُّراث، دمشق، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤هـ.

٣٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمَّد بن حنبل بن هلال بن أسد الشَّيبانيُّ، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التُّركيُّ، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٣٤- المسند الصَّحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجَّاج القشيريُّ النَّيسابوريُّ، المحقِّق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التُّراث العربيِّ، بيروت.

٣٥- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطَّبرانيُّ، المحقِّق: حمديُّ بن عبد المجيد السلفيُّ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطَّبعة: الثَّانية.

٣٦- مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العِلم والإرادة، محمَّد بن أبي بكرٍ بن أيُّوب بن سعدٍ شمس الدِّين ابن قيِّم الجوزيَّة، المحقِّق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، راجعه: محمَّد أجْمَل الإصلاحيُّ، سليمان بن عبد الله العمير، دار عالم الفوائد، مكَّة المكرَّمة، الطَّبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢هـ.

٣٧- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج، أبو زكريا محيي الدِّين يحيىٰ بن شرف النَّوويُّ، دار إحياء التُّراث العربيِّ، بيروت، الطَّبعة: الثَّانية، ١٣٩٢هـ.



فِهرس الفوائد العِلميَّة



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

